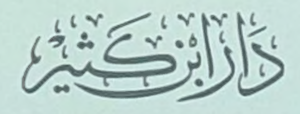
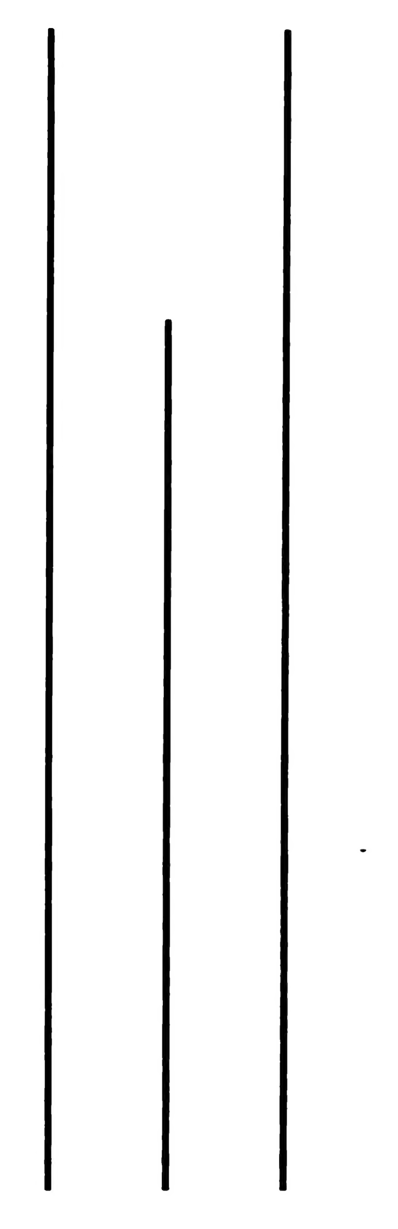
الطريق إلى المدينة

للعلّامة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النّدوي





الطريق إلى المدينة

○ الموضوع: ثقافة إسلامية
العنوان: الطريق إلى المدينة
تأليف: الشيخ أبي الحسن الندوي

الطبعة الثالثة
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
ISBN 978-614-415-143-3



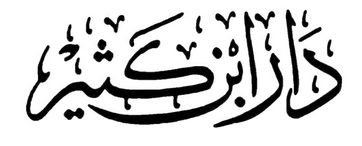
○ الطباعة والتجليد: ملكي برنت
○ الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
○ القياس: ١٤×٢٠ / عدد الصفحات: ١٢٨ / الوزن: ٢٥٠ غ

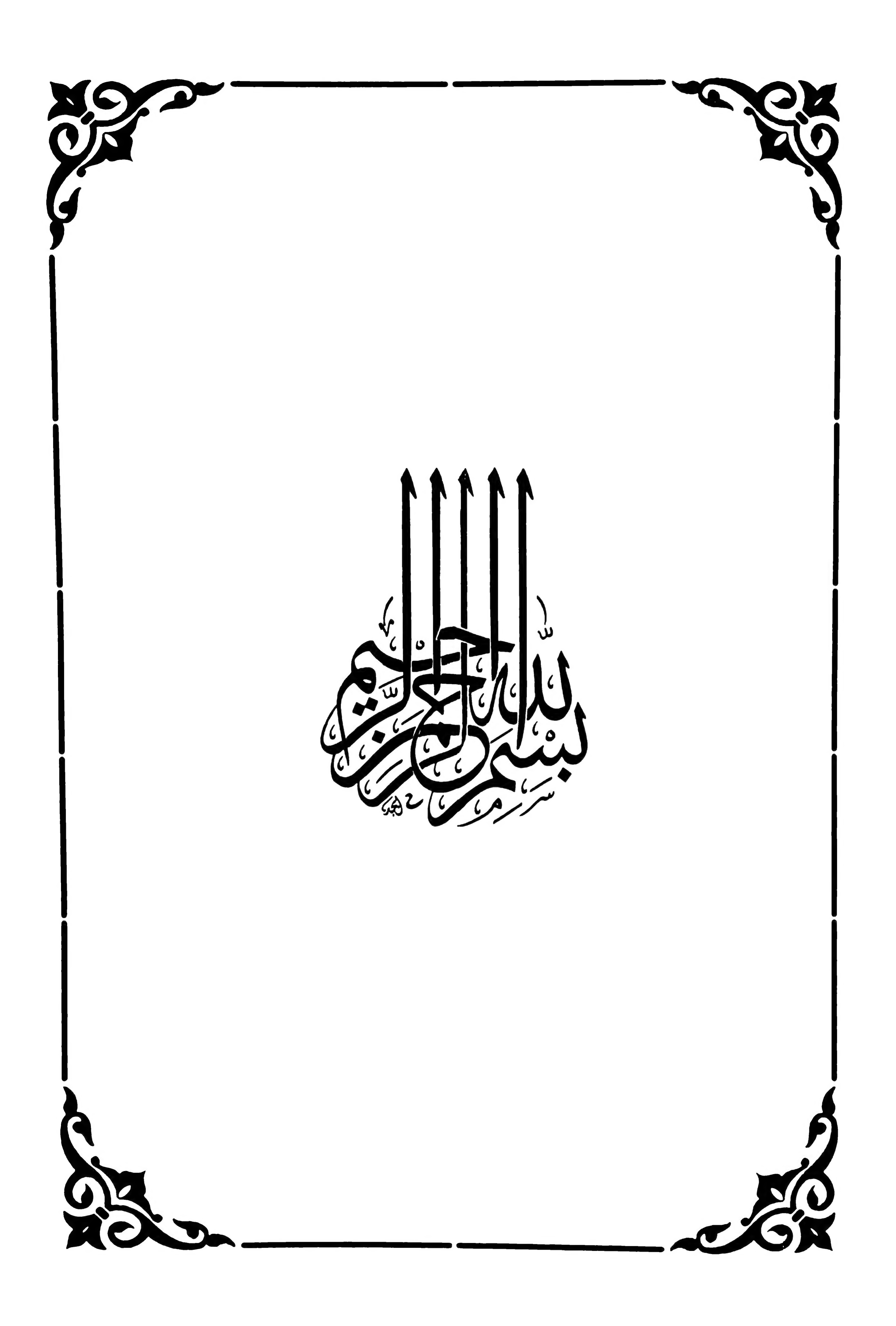


دمشق - سوريا - ص.ب : ٣١١
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠
الإدارة تلفاكس: ٢٢٤٣٥٠٢ - ٢٢٥٨٥٤١
بيروت - لبنان - ص.ب : ١١٣/٦٣١٨
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : ٨١٧٨٥٧ ٠١ - جوال : ٠٣٢٠٤٤٥٩
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



للعلّامة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النّدويّ




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد:

فرحم الله الشاعر[1] الذي يقول: «لقد عزمت على أن أجهز جيشاً جديداً من بلاد الحب والعاطفة ، فقد بدت في مركز الإسلام طلائع ثورة يقودها العقل الفلسفي».

لقد رأى المؤلف طلائع هذه الثورة بعينه في بلاد كانت مصدر الإيمان والحنان ، والعاطفة والوجدان ، وفي ربوعها تمثلت أروع رواية من روايات الوفاء والفداء وقوة العاطفة ، ولم تزل شعوب العالم الإسلامي تستمد منها هذا الحب الطاهر وهذه العاطفة الجياشة ، وتشعل بها مجامر قلوبها التي تتعرض حيناً بعد حين للانطفاء ، وتواجه العواصف الهوجاء.

---

(١) الدكتور محمد إقبال الشاعر الفيلسوف.

وهال المؤلف وأفزعه ضعف العاطفة في هذه البلاد ، وضعف الصلة الروحية والعاطفة بالنبي ﷺ ، وهو خطر كبير ، يمهد لكل ثورة ، ولكل اضطراب ، ولكل ضعف ، ولكل نوع من أنواع الفوضى. وقد تمالأت عوامل كثيرة ودعوات عديدة على تجفيف منابع هذا الحب وإضعافه على الأقل ، وأصيبت النفوس بجفاف في الشعور وفي التفكير ، سرى ذلك في الأدب والشعر ، وتعدى إلى الدين ومظاهره.

وقد أراد المؤلف أن يكون جندياً صغيراً في مهاجمة هذا التيار ، وفي إثارة هذا الحب الدفين والعاطفة ـ التي اعتقد أنها كامنة كشرارة في الرماد في قلب كل مسلم ـ وتغذيتها وتنميتها ، فجمع لهذا الغرض ما كتب من مقالات وما ألقى من محاضرات وأحاديث في خلال هذه السنوات ، وهي انطباعات عن هذه الشخصية الحبيبة وسيرتها وحياتها ، وعرض سريع لما قد تغنى به الشعراء والمحبون في ديار العجم ، وقد أسميت هذه المجموعة الصغيرة بـ «الطريق إلى المدينة» فإنها تمهد الطريق إلى هذه المدينة ، وتبعث الأشواق إليها وإلى منوّرها عليه ألف ألف سلام ، وأعتذر إلى صديقي الأستاذ محمد أسد الذي أخذت منه فكرة هذه التسمية ، والذي سمى كتابه الجليل بـ «الطريق إلى مكة».

وقد طلبت من صديقي أديب العربية الأستاذ علي الطنطاوي أن

يكتب كلمة كمقدمة للكتاب فتفضل بها مشكوراً ، وهي كلمة بليغة رقيقة كما هو العهد بصاحبها .

وأسأل الله مخلصاً أن ينفع بهذا الكتاب الصغير ، ويحقق به الغرض الكبير الذي كتب لأجله .

جدة ١٣/ ١/ ١٣٨٥هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فقد ظهرت الطبعة الأولى لكتاب «الطريق إلى المدينة» سنة ١٣٨٥هـ ، وظهرت الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م ، وقد تلقي الكتاب بقبول كبير ، وأبدى عدد من الأدباء والكتاب والعلماء إعجابهم بالكتاب ، وتأثرهم العميق بما جاء فيه، وقد كان له فضل في إشعال الجمرة الإيمانية ، والحب الدفين الكامن للرسول الأعظم ﷺ ، وتلك قيمة الكتاب إن كانت له قيمة ، وقد نقل في مدة قريبة إلى اللغة التركية ، وإلى اللغة الأردية الهندية[١] ، وقد قرر تدريسه ومطالعته في بعض المعاهد المحترمة .

ويعاد طبع الكتاب من جديد ، لنفاذ الطبعة الأولى والثانية

---

(١) وقد ظهرت ترجمته الهندية ، وترجمته الإنجليزية من «المجمع الإسلامي العلمي» بندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند) .

والثالثة ، وكثرة الطلبات لهذا الكتاب ، وقد كان المؤلف ضمّ بعض المواد إلى ترجمة الكتاب الأردية ، فنقل ما سهل نقله إلى هذه الطبعة ، وترك ما توقف على الصناعات اللفظية ، والتعبيرات المحلية ، والاستعارات والكنايات الفارسية ، أو الأردية ، فلا يتذوقها ، إلا من عاش في أجواء هذه اللغات ، وبيئاتها ، وضم إليها بعض محاضرات جديدة بالعربية ، وإلى القارىء الكريم الكتاب في طبعته الجديدة وثوبه القشيب .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

ندوة العلماء ـ لكهنؤ

جـدة ٨ من صفر سنة ١٤٠٧هـ

١٣/ ١٠/ ١٩٨٦م .

تقديم الكتاب

للشيخ علي الطنطاوي (رحمه الله)

يا أخي الأستاذ أبا الحسن:

تقول العامة عندنا في الشام: (المكتوب يعرف من عنوانه) ولقد هزني عنوان كتابك قبل أن أفتح الكتاب (الطريق إلى المدينة).

لقد أحسست أنه أعادني ثلاثاً وثلاثين مرحلة في طريق العمر، لقد ردني إلى الوراء ثلث قرن كامل، فرأيتني وأنا في البادية، بادية الحجاز، وقد مرت عليّ وعلى صحبي فيها خمسون يوماً، تتلظى من فوقنا شمسها، وتتضرَّم من تحتنا رمالها، ترفعنا أكمة لتتلقفنا قفرة، يحرقنا العطش ويروعنا الضلال، وقد تجمعت آمالنا كلها وأمانينا في أمل واحد، وأمنية مفردة، هي أن نرى المدينة.

لقد كنا يا أخي تائهين في البوادي في «الطريق إلى المدينة» ذقنا لذع الجوع وحرقة العطش، واجهنا الموت، وتجرعنا من التعب والخوف الصاب والعلقم، حتى أصبحنا يوماً، وكان معنا دليل

بدوي ، دائم الصمت ، معقود اللسان ، مربد الوجه ، فإذا به ينطلق وجهه ويتحرك لسانه ويقول كلمة ـ لو أعطيت ألفاً لما كانت الألف أحب إلي منها ، كلمة أحسست كأنها أحالت خوفنا أمناً وجوعنا وعطشنا شبعاً ورياً ، وتعبنا راحة وهناءً ، كلمة هي السحر ، إن كان من الكلمات ما هو سحر ـ قال : هذا أحد.

«أحد» تصور العاشق الهائم إذا طال عليه الهجر ، وبرّح به الشوق ، ثم قيل له : هذا منزل الحبيب.

على أن ذاك حب الجسد ، وهذا حب الروح وذاك حب الرغبة الأرضية التي تزول ، وهذا حب العاطفة السماوية التي تبقى ما بقيت الحياة.

إني لا أزال أذكر من وراء ثلث قرن ، كيف صبَّت هذه الكلمة القوة في أعصابنا صباً ، فإذا نحن نحث المطي ـ أي نستعجل السائقين ـ فقد كنا في السيارات ، وكانت سيارتنا أولى السيارات التي وطئت هذه الصحراء منذ برأها الله ، فنشط السائقون ، بل أحسسنا مما خالط نفوسنا من هزة الفرحة ونشوة الوصال أن السيارات وهي جماد قد نشطت ، فازدادت قوة وسرعة وإقداماً.

ولما درنا من حول «أحد» وبدت لنا القبة الخضراء عجز اللسان يومئذ عن وصف ما أحسسناه ، كما يعجز القلم اليوم.

فتكلمنا بلسان العاشقين : بخفقان القلب وتهطال الدموع ، وما

لنا لا تخفق قلوبنا وتهطل دموعنا وقد بلغنا دار الحبيب ، الدار التي كنا نعيش على تصورها ونتغذى بذكرها ، نقرأ السيرة فنحس إذ يمر بنا ذكر هذه الأماكن أنها هي مراح أرواحنا ، وأنها هي مواطن أفئدتنا ، إذا كانت البلاد التي ولدنا فيها مواطن أجسادنا ، ومتى كان موطن الجسد أحب إلى المرء من وطن الفؤاد؟! .

وهل في الأرض مسلم لا يفدي بلد الرسول ببلده إذا حاق البلاء (لا سمح الله) ببلد الرسول ، ولا يشتري سلامة بيت الله إن عرض له الأذى ببيته وبيت أهله؟! .

وإذا كان الرجل يشتهي أن يرى الدار التي ولد فيها الأديب ، والبلد الذي عاش فيه الشاعر ، فيشد الرحال وينفق الأموال ليصل إليه، فيستحلي في سبيل الوصول إليه مرارة التعب ، ويستهين بمشقات السفر ، فكيف لا يذوب قلب المسلم شوقاً إلى البلد الذي وطىء أرضه (محمد) حبيب كل مسلم ﷺ ، ونشق هواءه وشرب ماءه ، يمشي من حيث مشى الحبيب ، ويصلِّي حيث صلَّى ، يدخل من حيث دخل يوم هاجر من مكة ، ويخرج من حيث خرج يوم ذهب إلى أحد ، يشهد مكان المعركة ويقف على أجداث الشهداء ، ثم يعود إلى الروضة التي حلَّت في هذه الأرض وهي قطعة من جنة الخلد ، ثم يقف على الغرفة التي احتوت جسده حياً ، ثم أغلقت عليه ميتاً ، فلا تفتح إلى يوم القيامة ، فيقول: السلام عليك يا سيدي يا رسول الله .

إني لست أنسى ما شعرت به لما وقفت هذا الموقف أول مرة ، فما لي الآن لا أحس مثل ذلك الشوق ولا أشعر بمثل تلك الفرحة؟!

مالي أقرأ هذه الأشعار الحجازيات التي كانت تهز قلبي مثل هز الفلاح الشجرة المثمرة ، فتساقط في القلب العواطف والخواطر العلوية كالثمار الناضجة.

ما لي أقرؤها اليوم فلا تهز من القلب إلا غصوناً قد جردها من ورقها شتاء العمر ، فعادت حطباً؟!.

أمن طول المقام، أم من غفلة القلب ، أم لقد أفسدتني الأيام ، أم لأننا كنا نأتي في البر نمضي على «طريق المدينة» الأسابيع الطوال ، تحدونا الأشواق ويجذبنا الحنين ، وتموج في نفوسنا آلاف الخواطر ، فصرنا نأتيها في ساعتين أو ثلاث ساعات ، نصعد سلم الطيارة في الشام أو مصر ، فلا نكاد نفرغ من الطعام ونستريح ساعة إلى المنام ، حتى ننزل من سلم الطيارة في جدة.

ربحنا الوقت وخسرنا العواطف والتأملات. . .

لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي ، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن «الطريق إلى المدينة» أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي ، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب ، ولكن هموم العيش وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار ، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار.

وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنَّى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البُرعي ، فلما قرأت كتابك وجدتها ، وجدتها في نثر هو الشعر ، إلا أنه بغير نظام.

فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إليّ ثقتي بنفسي ، وثقتي بأدب لغتي ، أما المقدمة التي طلبتها فأعفني منها ، لأنك لست في حاجة إليها ، ولا يحتاج إليها هذا الكتاب.

إن المقدمات في الكتب كالوسيط في التجارة، يطلبها التاجر الجديد لترويج البضاعة المجهولة ، فماذا يصنع الوسيط إذا كان المستهلكون يعرفون التاجر أكثر مما يعرفونه هو ، ويحرصون على شراء البضاعة أكثر من حرص التاجر على بيعها؟!.

والسلام عليك ورحمة الله

مكة المكرمة: ١٢/ ٢/ ١٣٨٥هـ

علي الطنطاوي

الكتاب الذي لا أنسى فضله[1]

أتحدث اليوم عن كتاب كانت منَّته ـ ولا تزال ـ عظيمة عليّ ، وإني دائم الترحيم على صاحبه العظيم الذي أتحفني عن طريق هذا الكتاب بمنحة هي أغلى الأشياء عندي بعد الإيمان ، بل هو جزء من أجزاء الإيمان ، وهو كتاب «سيرة رحمة للعالمين» لمؤلفه القاضي محمد سليمان المنصور فوري رحمة الله عليه ، ولهذا الكتاب قصة عجيبة .

لقد كان أخي الأكبر[2] ـ وهو الذي تولّى تربيتي وتثقيفي بعد وفاة أبي ، وقد توفي وأنا في التاسعة من عمري ـ موفقاً كل التوفيق في اختيار الكتب التي كان يجب أن أطالعها في صغري ، فقد قدّم إليّ في أول ما قدم كتاب «سيرة خير البشر» لمؤلف هندي ، وكان

---

(١) حلقة من سلسلة «الكتب التي عشت فيها» كتبها المؤلف لمجلة البعث الإسلامي .

(٢) هو الدكتور السيد عبد العلي الحسني مدير ندوة العلماء في لكهنؤ الهند ، توفي في ٢٨ ذي القعدة عام ١٣٨٠هـ .

حريصاً على أن أكثر من مطالعة كتب السيرة النبوية على صاحبها الصلاة و السلام ، لأنه يعرف أنها المؤثر الأكبر في تكوين السيرة والعقيدة والخلق وغرس الإيمان ، وقد نشأت لذلك على حب كتب السِّيَر ، والحرص على اقتنائها ومطالعتها.

وقع بصري مرة على اسم كتاب «رحمة للعالمين» وكنت كثير النظر في الفهارس وإعلانات الكتب ، وأرسلت طلباً لهذا الكتاب ، وكان قد طبع منه جزءان ، تقصر ميزانيتي الصغيرة ـ وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري ـ عن شرائه ، ولكن الصغار ـ خصوصاً في العصر الذي أتحدث عنه ـ لا يخضعون لقوانين الميزانيات وعلم الاقتصاد ، إنما ينساقون مع الغرائز والعواطف.

وجاء ساعي البريد وهو يحمل هذا الكتاب فيما يحمله من بريد قريتنا الصغيرة ، ورأيت فلا أملك ما أتسلم به هذا الكتاب وأدفع ثمنه، واعتذرت أمي ـ بارك الله في حياتها [١] ـ مع حرصها على إرضاء طفلها اليتيم عن دفع النقود ، لأنها لم تكن تملكها في ذلك الحين.

ورأيت فلم أر لي مساعداً وشفيعاً في هذه المهمة إلا الشفيع الذي

---

(١) توفيت بعد كتابة هذا المقال لست خَلون من جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ ، وكانت رحمة الله عليها من فضليات النساء تحفظ القرآن ، وتقول الشعر، ولها عدة مؤلفات ومجموع شعر.

طالما لجأ إليه الأطفال، وعرفوا أن شفاعته لا ترد، ذلك الشفيع الذي لجأ إليه سيدنا عمير بن أبي وقاص الصغير، فقبل رسول الله ﷺ شفاعته وأجازه للقتال في بدر ، ذلك شفيع الدموع و البكاء البريء الذي لم يزل وجيهاً مسموعاً عند الله وعند عباده الصالحين.

وكذلك كان ، فقد رقّ لذلك قلب أمي الحنون ، واجتهدت في دفع قيمة الكتاب والحصول عليه ، وأخذت الكتاب.

بدأت أقرأ الكتاب ، وبدأ الكتاب يهز قلبي ، وليست بهزة عنيفة مزعجة ، إنما هي هزة رقيقة رفيقة ، وبدأ قلبي يهتز له ويطرب :

... ...

كما اهتز تحت البارد الغصن الرطب

وهذا هو الفارق بين هزة الكتب التي ألفت في حياة الأبطال والفاتحين الكبار ، وبين هزة الكتب التي ألفت في سيرة الرسول الأعظم ﷺ ، فالأولى هزة تغير على القلب وتزعجه ، والثانية هزة تنبعث في النفس وتريحها.

وبدأت تتجاوب نفسي لهذا الكتاب وتسيغه كأنما كانت منه على ميعاد ، وشعرت في أثناء قراءتي لهذا الكتاب بلذة غريبة ، إنها لذة تختلف عن جميع اللذات التي عرفتها في صغري ـ ولم أزل مرهف الحس قوي الشعور ـ فلا هي لذة الطعام الشهي في الجوع ، ولا هي لذة اللباس الجديدة في يوم العيد ، ولا هي لذة اللعب في حين

الشوق إليها ، ولا هي لذة العطلة والفراغ بعد الدراسة المضنية والاشتغال المرهق ، ولا هي لذة الانتصار والظفر في المباراة ، و لاهي لذة زيارة صديق قديم أو زائر كريم ، إنها لا تشبه لذة من هذه اللذات، إنها لذة أعرف طعمها ولا أستطيع وصفها ، وأعترف أني لا أستطيع حتى اليوم أن أصفها بدقة وأعبر عنها بكلمة ، إن غاية ما أستطيع أن أقول إنها لذة الروح ، وهل الأطفال لا يحملون الأرواح؟ ولا يشعرون باللذة الروحية؟ بلى والله! إن الأطفال أشف روحاً وأصح شعوراً ، وإن عجزوا عن التعبير.

كنت أقرأ في هذا الكتاب المعجب المطرب خبر من كان يسلم من قريش فتنهال عليه أنواع العذاب، فكان يحتمل كل ذلك في ثبات وصبر بل في لذة وسرور ، فكنت أشعر بأن هناك لذة لا يعرفها كثير من الأغنياء والأقوياء ، وكثير ممن يعدون في الحياة سعداء ، وهو أن تُضْرب على الحق، وتُضطهد في عقيدة ، وتُهان في سبيل الدعوة، وإن هذه اللذة لا تعدلها لذة القوة والظفر والحكم، ورأيت أن نفسي تتمنى أن تسعد بهذه اللذة وبهذه الكرامة ولو مرة في العمر.

وقرأت قصة مصعب بن عمير ، وكان مثال الترف والأناقة في اللباس والبذخ في المعيشة ، وهو فتى قريش الناعم ، يخرج بمكة وعليه ثياب تقوّم بمئة من الدراهم ، ويتبعه الغلمان ويصبح حديث الوادي ، ثم يضع يده في يد رسول الله ﷺ ، فيخرج من كل هذا النعيم والترف ، ويتخشن في اللباس ويتقشف في المعيشة ، وقد

يضطر إلى أن يمسك رداءه بشوك السمر ، ويدمع هذا المنظر عين رسول الله ﷺ ، ويذكر ما كان عليه مصعب من رقة المعيشة ونعومة الحياة ، ويقتل فتى الفتيان في أحد فلا يخلف إلا كساء إذا غطي رأسه به انكشفت رجلاه ، وإذا غطيت رجلاه انكشف رأسه ، فيقول رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه وضعوا على رجليه الإذخر»(١).

قرأت هذه القصة ، فملكت قلبي وأسرت نفسي وعرفت أن وراء العيش الناعم ، واللباس الفاخر ، والطعام الأنيق ، والقصر الشامخ حاجة تقاصرت عنها همم الأثرياء والملوك ، ولذة جهلها أصحاب الشهوات و المعدات ، ورجعت إلى نفسي فوجدتها تطمح إلى هذه الحاجة وترغب في هذه اللذة ، ووجدتها أكثرَ إجلالاً لهذه الحقيقة منها لملابس الأغنياء والمظاهر الجوفاء.

وقرأت قصة الهجرة النبوية ، قصة لا أعرف أني قرأت قصة أكثر تأثيراً وأجمل تصويراً من هذه القصة التي يحكيها المؤلف ، في صدق وبساطة ، يدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وقد تعلقت به القلوب وطمحت إليه الأبصار ، وتتقدم قبيلة قبيلة وتقول في صدق و إخلاص: يا رسول الله ، هلمّ إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة. فيقول ـ فداه أبي وأمي ـ: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» ثم تبرك على باب مسجده اليوم ، وتأبى أن تقوم ويأبى الله

---

(١) الإذخر بكسر الهمزة: حشيشة طيبة الرائحة.

أن يكون هذا الشرف الذي ليس فوقه شرف إلا لأبي أيوب الأنصاري فيحتمل أبو أيوب رَحله فيضعه في بيته ، وأقرأ سرور أبي أيوب بهذه الكرامة التي ساقها الله إليه وإخلاصه في ضيافته ، أقرأ كل هذا ، وأجد قلبي قد فارقني ورافق ناقة رسول الله ﷺ ، فيدخل في ركابه المدينة ، وأجد كأني أشاهد كل ذلك بعيني ، وأجد أن كل ما قرأت أو سمعت من دخول الملوك والفاتحين والعظماء والأغنياء قد تضاءل واضمحل ، وأن كل ما عرفته من حب وإخلاص من رجل لرجل قد ذاب وغاب ، وارتسم هذا المنظر في نفسي وفي ذاكرتي.

وقرأت قصة أحد، قصة لم يعرف التاريخ أعظم منها ، وأغرب منها ، وأجمل منها ، في الوفاء والإخلاص والبطولة ، والإيمان واليقين والخلق الكريم ، وقد هزَّني قول أنس بن النضر رضي الله عنه للذين جلسوا وألقوا بأيديهم وقالوا: قُتل رسول الله ﷺ ، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟! موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، وقول القائل: «إني لأجد ريح الجنة من دون أحد» والذي كانت أمنيته الأخيرة أن يصل إلى رسول الله ﷺ وهو في آخر عهده بالدنيا ، فحملوه إليه وهو يجود بنفسه ولفظ نفسه الأخير بين قدمي رسول الله ﷺ ، وكيف ترّس أبو دجانة رضي الله عنه بنفسه دون رسول الله ﷺ ، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه ، إلى غير ذلك من أحاديث الحب والتفاني ، وهكذا أتابع قراءتي لهذا الكتاب. وقد يغلبني البكاء فأبكي ، وقد يملكني السرور والطرب فأطرب.

إن الحسنة التي لا أنساها لهذا الكتاب وصاحبه المخلص أنه أثار في قلبي كامن الحب الذي لا لذة في الحياة بغيره ، ولا قيمة للحياة بغيره ، وقد صدق الشاعر الفارسي[١] حيث قال: «قاتل الله ذلك اليوم الذي مضى ولم أذق فيه لذة الحب ، ولا بارك الله في الساعة التي مضت ولم تهب فيها نفحة من نفحات الحب ، وسحقاً للحياة إذا قضيتها كلها في تحكيم للعقل والخضوع للمنطق».

بل إن الحب هو محصول الحياة ولبّ اللباب ، وقد أجاد القائل الذي يقول: «نظرت في هذا العالم فإذا هو بيدر[٢] واسع ، ونظرت فيه فإذا «الحب» هو الحب الوحيد وكل ما عداه فهو تبن وحشيش ، وهشيم وحصيد».

هذا هو «الحب» الذي امتاز به من امتاز من الأبطال ونوابغ الرجال والعبقريين بين أقرانهم وأمثالهم ، وعاش به من عاش من الضعفاء وأوساط الناس، وخلَّف آثاراً عجز عن انتاجها أقوى الرجال وأغناهم، وملكه الرجال فقهروا الأمم، وملكته الأمة فقهرت العالم.

هذا هو «الحب» الذي أفلست فيه هذه الأمة في العهد الأخير ، فملكت مالاً طائلاً وعلماً واسعاً وجاهاً عريضاً ودولاً كثيرة، ولكنها

---

(١) هو شاعر الفارسية البارع الأمير خسرو.

(٢) البيدر: الموضع الذي يجمع فيه الحصيد ويداس.

أفلست في «أكسير الحياة» فأصبحت جسداً ميتاً تحمله الحياة على أكتافها.

هذا هو «الحب» الذي كان أعظم الطبقات إفلاساً فيه الطبقة العصرية المتعلمة في هذه الأمة، فكانت أجوفها روحاً، وأضعفها مقاومة، وأخفها وزناً، وأكدرها حياة، وأضلها عملاً.

وشكراً لهذا الكتاب وصاحبه، لأنه أثار في نفسي كامن الحب وحرّكه، وشكراً على أنه وجه هذا الحب المنبعث المتحرك إلى من يستحقه بما فطر عليه من معاني الحسن والإحسان، ومعجزات الجمال والكمال، الذي لم يخلق الله في هذا الكون ـ وهو الخلّاق المبدع ـ أجمل منه سيرة وصورة، وأقوم منه خَلقاً وخُلقاً ﷺ.

إن مصيبة هذه الأمة البائسة أنها قطعت صلتها عن القلب، وحُرمت لذة الحب، وقد صدق شاعر الإسلام محمد إقبال إذ قال:

«إن كارثة المسلمين في هذا العصر أنهم يحملون القلوب ولا يعرفون المحبوب، إنهم يملكون مادة الحب، ولا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها إليه».

سلام عليك يا سليمان، لقد وجدت في كتابك نعمتين لا أعدل بهما نعمة بعد نعمة الإسلام، إنما هما: نعمة الحب الطاهر، ونعمة هدفه الصحيح، ويا لهما من نعمة!

* * *

محمد إقبال في مدينة الرّسول[1] ﷺ

لقد عاش الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوف العصر ـ مدة حياته ـ في حب النبي ﷺ ، والأشواق إلى مدينته ، وتغنَّى بهما في شعره الخالد ، وقد طفحت الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع ، ولم يقدر له الحج وزيارة الرسول ﷺ لجسمه الضعيف ، الذي كان من زمان يعاني الأمراض والأسقام ، ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلَّق في أجواء الحجاز ، وتحدث إلى الرسول الأعظم ﷺ بما شاء قلبه وحبه ، وإخلاصه ووفاؤه[2] وتحدث إليه عن نفسه ، وعن عصره وعن أمته ، وعن مجتمعه ، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك

---

(١) أذيع هذا الحديث من محطة دمشق عام ١٩٥٦ م.

(٢) ليس هذا الحديث من الاستعانة في شيء ، إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب استعمله الشعراء قديماً وحديثاً.

بزمامها ، وينتظرُ في فرصة إطلاقها ، وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامةَ جرعَى حومةِ الجندلِ، أسجعي

فأنت بمرأى من سعادٍ ومسمعِ

فكان شعره في النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها ، وكان حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويراً لعصره ، وتقريراً عن أمته ، وتعبيراً عن عواطفه .

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات ، وهو يتخيل أنه مسافرٌ إلى مكة والمدينة ـ شرّفهما الله ـ يهوي به العيس ، ويسير به الركب على رمال وعساء ، يتخيل بشدة شوقه وحبه أنها أنعم من الحرير وأن كل ذرة من ذراتها قلب يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً ، ويرفق بهذه القلوب الخفاقة ، ويحدو الحادي بما لا يفهمه ، فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ .

ثم يسعد بالمثول بين يدي الرسول ، فيصلِّي ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه ، وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه وبلاده ، والفترة التي يعيش فيها ، وعن أمته وعن الأزمات والمشاكل التي تعانيها . وما فعل بها الزمان وطوارق الحدَثان ، وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية والفلسفات المادية ، وما فعلت برسالتها

والأمانةَ التي حملْتها ، وأين هي من ماضيها وخصائصها ، يرثي لها تارة ويبكي ، ويشكوها مرة ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنه، ووحدته في مجتمعه ، وضيعة رسالته في أمته ، وقد سمَّى هذه المجموعة بـ «هدية الحجاز» كأنها هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ، ولا شك أنها هدية مباركة للعالم الإسلامي ، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز .

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على الستين ووهنت قواه ، في سن يفضِّل فيها الناس الراحة والإقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ، والسفر إلى الحجاز شاق مضن ، وقد نصحه الأطباء والأحبة بالراحة والهدوء ، ولكنه يعصيهم ويطيع أمر الحب ، ويلبي منادي الشوق ويقول: «لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبي وكبر سني ، أغني وأنشد الأبيات في سرور وحنين ، ولا عجب فإن الطائر يطير في الصحراء طول نهاره ، فإذا أدبر النهار وأقبل الليل ، رفرف بجناحيه ، وقصد وكره ليأوي إليه، ويبيت فيه» .

كأنه يقول لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة ـ وهي وكر طائر الروح ومأرز المؤمن [١] ـ في أصيل حياتي ، وفي سن أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب، أما رأيتم الطائر إذ جنّ الليل أسرع إلى وكره؟! .

---

(١) ملجأ المؤمن ونهاية مطافه.

بدأ محمد إقبال سفره وهو شيخ مريض ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً ، وقد قال لها : «رويدك يا حبيبتي ، فإن راكبك لاغب ، ومريض ، وكبير السن ، فمشت في نشوة وطرب ، ولم تبال ، كأن الصحراء حرير تحت أرجلها» .

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يحدو بالصلاة على النبي ﷺ ، ويريد الشاعر أن يسجد سجدة على هذه الرمضاء، يدوم أثرها في جبهته طول حياته، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه .

ويملكه الشوق ، فيحدو وينشد أبياتاً من شعر العراقي والجامي[١] فيتساءل الناس : من هذا الأعجمي الذي يغني ويحدو بلغة لا نفهمها؟ ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها إيماناً وحناناً ، حتى يذهل الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء! .

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه في الطريق ، من سهر وعناء ، وقلة طعام وشراب ، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصول ، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول حتى يعيش في هذه الأشواق ، وفي هذا الحنين مدة أوسع ، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزهة المشتاق .

---

(١) شاعران فارسيان ، لهما قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي ﷺ .

وهكذا يطوي محمد إقبال هذه المسافة في سرور وحنين ، حتى يصل إلى المدينة ، فيقول لزميله : «تعال يا صديقي ، نبك سروراً ونتحدث ساعة ، ونرسل النفس على سجيتها ، فإن لنا شأناً مع هذا الحبيب الذي أسعدنا به الحظ بعد طول فراق وشدة اشتياق» .

ويقبل على نفسه فيتعجب كيف اختص من بين أقرانه بهذه السعادة ثم يقول : «لا عجب فإن المحبين المتيمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين ، يا سعادة الجد ، ويا حسن الطالع!! لقد سمح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك» .

ولا يلبث محمد إقبال ـ وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة ـ أن يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندي ، يذكر آلامهما وآمالهما ، فيذكر كل ذلك في بلاغة الشاعر ، وصدق الرائد ، وما أجملهما إذا التقيا ، يقول :

«إن هذا المسلم البائس ، الذي لا تزال فيه بقية من شمم وإباء ، وأنفة الملوك وعزة الآباء ، لقد فقد مع الأيام ، يا رسول الله! لوعة القلب وأكسير الحب ، إن قلبه حزين منكسر ولكنه لا يعرف سر ذلك» .

«ماذا أحدثك به يا رسول الله! عن آلامه ورزيئته ، حسبك أنه هوى من قمة عالية ، أنه هبط من تلك العليا التي وصلت به إليها ، وكلما ارتفع المكان الذي يسقط منه كان ألمه شديداً، وكانت

الصدمة عظيمة ، فلطف الله بهذه الأمة المنكوبة الهاوية من قمة المجد العالية».

«إنه لا يزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزلته ، حسبك من هذه الأمة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ، إنها تعيش من غير إمام».

«إن غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ، إن الكتاب الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الخرب ، على طاق تراكمت عليه الأتربة ونسج عليه العنكبوت».

«إنه أصبح ، بطول عهده بالمغامرات والبطولات ، لا يفهم لغة المغامرين ، وأهابة الشجعان المجاهدين ، وقد ألف نغمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين».

«وإن عينه فقدت النور ، وإن قلبه حرم السرور ، إن رزيئته أنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور».

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء ، وحاضره القاسي الكالح ، وكيف صعب عليه أن يتقشف ويعتمد على نفسه ، ويكدح في الحياة ، وما أبلغ قوله :

«إنه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربيته بالفواكه ، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء».

ويتذكر محمد إقبال فتنة اللادينية التي توجهت إلى العالم

الإسلامي ، ويعرف محمد إقبال ـ وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد ـ أن سببها النظر المادي البحت ، وخواء الروح ، وبرودة القلب ، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثير من الناس، ويعتقد أنه لا سبيل إلى محاربة هذه اللادينية، والفلسفة الاقتصادية المادية إلا الحياة التي تقوم على الحب والزهد، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصديق المحب الزاهد ، فيتمنى للمسلمين هذه الحياة المثالية التي يسيطر عليها الحب والزهد، وإذا وجدت هذه الحياة اضطر الناس إلى تقديرها وإجلالها .

إنه لا يعلل انحطاط المسلمين بالفقر والضعف في المادة ، بل يعلله بانطفاء تلك الشعلة التي التهبت في صدورهم ويقول: «إن أولئك الفقراء ـ المسلمين الأولين ـ لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم في صف واحد ، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك ، ولما انطفأت هذه الجذوة في صدورهم انطووا على نفوسهم ، وأووا إلى الزوايا والتكايا» .

وإنه ليستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيها ما يخجل كل مسلم ، يرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ، ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله ، وخضوع للجبابرة والطغاة ، ما يتندى له الجبين حياء ، يذكر «إقبال» ذلك كله ويطرق رأسه حياءً وخجلاً ، ويقول في صراحة واعتراف ، وبلاغة وإيجاز :

«إن جملة القول ما كنا جديرين بك يا رسول الله» .

ويلقي نظرة على العالم الإسلامي ، وقد جال في أنحائه ، وعرف مراكزه ، فيشكو ضعفه وفقره المعنوي ويقول في إجمال: «إن المراكز الروحية (الرباطات والزوايا).

أصبحت فقيرة لا تملك غذاء القلب ولا تحمل رسالة الحب ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) طغى عليها التقليد، فهي تردد ما تلقنته في الماضي في غير إبداع وابتكار ، وهي كثور الطاحون يدور في دائرة واحدة ، أما أندية الشعر والأدب فقد خرجت منها كئيباً حزيناً ، فليس في نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ويثير الطموح ، إنه شعر بارد يخرج من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت» .

ويقول: «قد ضربت في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن تغص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذي يفرق منه الموت فلم أر له عيناً ولا أثراً» .

ويذكر السر في ضعف المسلمين، وتشتت أهوائهم وخمودهم، فيقول: «لقد شق عليَّ ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً وشكوت إلى ربي ، فقيل: ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ولا يعرفون المحبوب؟! يعني أنهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها إليه ، فقلوبهم تائهة، وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور» وهي حياة من رزق القلب ، وحرم الحب ،

أو حياة من عرف الحب وجهل المحبوب ، إنها لا شك حياة عذاب و شقاء وحياة حيرة وضلال .

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير قانط من رحمـة الله ، بل ينتـقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين وقطعهم الرجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ويقول في عتاب وتألّم : «إن أحوالهم وأحاديثهم تنم عن أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وأنهم متشائمون ، ينظرون إلى المسلمين وإلى الحياة بمنظار أسود» ويقول : «إن المسلم ، وإن كان قد تجرد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره ، لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ، وإنه إن قدر له أن يعود إلى مركزه ، كان جماله جلالاً ، وكانت له سطوة لا تطاق» .

وهنا يقبل محمد إقبال إلى نفسه، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه ، يقول : «إني أستحق العطف والعناية فإني في صراع عنيف ، وحرب دامية مع عصري المادي» .

ولا شك أن إقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحداهما ، وانتقدهما ، وزيفهما في شجاعة وعلى بصيرة وخبرة ، وقد كان مربي جيل جديد ، مؤمن بالله ، واثق بنفسه، معتَـدٌّ بشخصيته وشخصية الإسلام ، كافر بالأسس المادية والتفكير المادي ، الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، وحق له أن يقول :

«لقد أذنت في الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه أسرار الروح والحب. لقد كان ثائراً على فتن عصره وكنت ثائراً على فتن عصري».

ويذكر تمرده على العلوم الغربية ، وتفلته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وإيمانه ، وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة: «كنت كطائر يقع على شبكة ، فيقرض الحبال ، ويأخذ الحب ويطير بسلام» وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ورمى بقشورها وخرج من حبائلها سالماً.

ثم يقول في افتخار واعتزاز: «يعلم الله! أني دخلت في أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير أن أرزأ في عقيدتي ، وخلقي وصلتي بك ، وقد جلست في نارها بشجاعة ، وخرجت منها بسلام ، كما كان شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع نار نمرود».

وهنا يتذكر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم أوربا ، بين الكتب الجافة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة ، فيقول: «لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي ، جاهلاً لشخصيتي ، حتى لما وقع بصري عليَّ لم أعرف نفسي».

ويقول: «لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمر حانته كأساً دهاقاً ، يا له من صداع اشتريته! لقد عشت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يا لها من فترة مظلمة

قضيتها من حياتي! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب ، إن دروس الحكماء قد صدعت رأسي ، وكدرت بالي ، ذلك لأني نشأت في حضانة الحب والإيمان فلا يُناسبني ، ولا يملأ فراغ نفسي إلا العاطفة والحنان» .

وهنا يقبل الشاعر إلى الطبقة التي تمثل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول: «إن العالم الديني لا يحمل هماً ، إن عينه بصيرة ، ولكنها جافة لا تدمع ، لقد زهدت في صحبته لأنه علم ولا هم ، وأرض مقدسة ولا زمزم» .

لقد شبهه محمد إقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلاً كبيراً ، ولكنه مع الأسف رمال جافة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ، ومكة ببيتها وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب ، فما أفقر العالم الديني الذي يحمل علماً جماً ، ولساناً بليغاً ، وعقلاً مستنيراً ، ولا يحمل دمعة في عينه ، ولا لوعة في قلبه ، إنه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها .

ثم يحكي عن نفسه ، ويقول: «إنني لم أبع نفسي وضميري لأحد ، ولم أستعن بأحد في حل مشاكلي ، ذلك لأني اتكلت على غير الله مرة واحدة ، فسقطت عن مقامي ، وعوقبت بالهوان مئتي مرة» .

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم ، فيقول: «إني أحترق بنار شوقي وحبي ، وأستغرب أني خلقت في عصر لا يعرف الإخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ، في عصر لم يعرف لوعة القلب ولم يذق لذة الحب ، أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ، وأغني وحدي ، وقد أتحدث إلى نفسي وأخفف من أشجاني وآلامي».

ويقول: «إن إخوني لم يعملوا بما قلت لهم ، إنهم لم يجنوا الرطب من نخل شعري ، إليك أشكو يا سيد الأمم! من أناس لا ينظرون إليّ إلا كشاعر أو متغزل.

لقد أمرتني يا رسول الله! أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكن هؤلاء القساة يقترحون عليَّ أن أنوح الأموات في الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما أمرتني به؟!».

ويشكو في توجع وحزن عميق ، زهد أبناء عصره في العلم ، الذي كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ويقول: «عرضت قلبي عسى أن يستأسره أحد ، فلم أر فيه راغباً ولا له طالباً ، وأبحت ثروتي ، وما يحويه صدري فلم أر لها مقدِّراً ، فليعمر حبك قلبي وليشغل حديثك لساني فإني لا أجد في العالم من هو أشد وحدة وأعظم غربة مني».

ويختم قصيدته بأبيات يوجهها إلى المرحوم عبد العزيز بن سعود ـ باعتباره ملك الحجاز في عهده ـ وهو خطاب موجه إلى جميع ملوك العرب وزعمائهم وعظمائهم ، يحذره من الاستعانة بالأجانب والدول الأوربية ، ويدعوه إلى الاعتماد على الله ثم على ما عنده ، يقول: «اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ، ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك ، ولا تنس أن استعارة الأطناب من الأجانب حرام».

* * *

وفود الأمة بين يدي نبيها[1] ﷺ

عفا الله عن المؤرخين والمشتغلين بالتاريخ ، إنهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير في أقدس مكان وأفضل زمان ، إنهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ويصلون الحاضر بالماضي .

كنت أمس في الروضة في المسجد النبوي، وحولي جمع حاشد من المصلين والمتعبدين بعضهم في ركوع وبعضهم في سجود ، ولتلاوة القرآن دوي كدوي النحل ، كل ذلك كان جديراً بأن يشغلني عن التفكير في التاريخ وفي رجال الماضي ، ولكن سحابة غشيتني من الذكريات القديمة لم أستطع لها دفعاً ولم أملك لها قهراً .

رأيت كأن عظماء هذه الأمة عاشوا من جديد ، وجاؤوا وفوداً يصلون في هذا المسجد العظيم، ويسلمون على هذا النبي الكريم، ويقومون بواجب الإجلال والتكريم والامتنان والاعتراف بالجميل،

---

(١) حديث أذيع من محطة الإذاعة السعودية العربية في جدة عام ١٩٦٢ م.

يشهدون له على اختلاف طبقاتهم، بأنه هو الذي أخرجهم بإذن الله من الظلمات إلى النور ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ويشهدون على أنفسهم بأنهم غرس الإسلام وزرع النبوة ، وأنهم ـ لا سمح الله ـ لو تجردوا مما أكرمهم الله به عن طريق هذا النبي ومما أتحفتهم به نبوته؛ لعادوا أجساداً بلا روح ، وخطاً بلا وضوح ، ولعادوا إلى عهد الظلمات وشريعة الغابات وقانون العصابات ، وانطمست معالم هذه الحضارة.

حانت مني التفاتة فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل ـ وهو أقرب الأبواب إليّ ـ عليهم السكينة والوقار ، يعلوهم نور العلم وسيما التفكير ، وقد ملؤوا الرحاب بين باب جبريل باليسار إلى باب الرحمة باليمين ، منعت كثرتهم عن العد والتشخيص ، سألت البواب عنهم ، فقال: هؤلاء أعلام الأمة وأئمة العلم وعباقرة الإنسانية ونوابغ الوجود ، كل واحد منهم إمام أمة ومؤسس مكتبة ، ومبتكر علم ومربي جيل ، قد خلدت آثارهم فامتدت على العصور والآفاق ، وسارت في ضوء علومهم واجتهادهم وتحقيقهم الأجيال بعد الأجيال ، وقد سمَّى منهم على عجل واحتشام ، مالك بن أنس ، و أبا حنيفة النعمان ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وليث بن سعد المصري ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ،

ومسلم بن حجاج القشيري ، ومحمد بن محمد الغزالي ، وتقي الدين بن تيمية ، وموفق الدين بن قدامة ، وأبا إسحاق الشاطبي ، وكمال بن الهمام ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، على تفاوتهم في الزمان والمكان ، وأصالة العلم وعلو الشأن .

رأيتهم بـدؤوا بتحيـة المسجـد وصلـوا ركعتيـن فـي خشـوع وقنوت ، ثم تقدموا إلى القبر الشريف في أدب وتواضع ، وسلموا على نبيهم ﷺ في كلمات وجيزة المباني ، كثيرة المعاني ، عميقة الجذور ، سامقة الذرى، وكأني أسمعهم يقولون ، وفي عيونهم دموع وفي صوتهم خشوع: «لولاك يا رسول الله ، ولولا شريعتك السمحة الواسعة الخالدة مع الزمان ، ولولا أصولها المفتِّقة للقـرائـح ، ووضعهـا الحكيـم المعجـز ، البـاعـث علـى التفكيـر والتفريع ، ولولا حاجة الإنسان إليها في كل زمان ومكان ، لما دون هنا هذا الفقه العظيم ، وهذا التشريع الحكيم الذي لا تحمله أمة من الأمم ومجتمع من المجتمعات البشرية ، ولما نشأت هذه المكتبة الدينية التي تتضاءل أمامها كل مكتبات العالم الدينية ، ولولا جهادك في سبيل نشر العلم والحث على استعمال العقل والتدبر في آيات الله لما عاش العلم وانتشر هذا الانتشار الواسع ، ولما أطلق العقل الإنساني من إساره و سار العالم في آثاره» .

ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت نظري فريق آخر يدخل من باب الرحمة ، عليهم سيما الصلاح والعبادة ،

وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة ، قيل لي: إنَّ فيهم الحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، وسفيان الثوري، والجنيد البغدادي، والفضيل بن عياض ، وداود الطائي ، وابن السماك ، وعبد القادر الجيلاني ، ونظام الدين البدايوني[١] ، وعبد الوهاب المتقي[١]، وأضرابهم، اقتدوا بالأولين، وتقدموا بعد الصلاة ، ووقفوا أمام المدفن الشريف ، يصلون على نبيهم وإمامهم وقدوتهم ، ويقولون: «لولا المثل العملي الذي ضربته في حياتك ، ولولا منارك الذي أقمته لمن يأتي بعدك يا رسول الله ، ولولا قولك: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ووصيتك «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» ولولا حياتك التي وصفتها لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، «وطلوع هلال بعد هلال ومرور شهر بعد شهر لا توقد في بيتك نار ولا تنصب لها قدر» لما كان لنا أن نؤثر الآخرة على الدنيا ، وأن نكتفي ببلغة من العيش وكفاف من الزاد، ولما كان لنا أن نتمرد على الشهوات ونقاوم إغراء الأموال والمناصب والحكومات، في غير تحريم لما أحل الله من الطيبات ، ومن غير تحقير لما مَنَّ الله علينا من النعيم ، ووسع لنا في الحياة ، ولكنه إيمان المؤمن وايثارٌ للآخرة ونعيمها على الحياة الدنيا وطيباتها وعزوف عن الشهوات، وكراهة للتكالب على حطام الدنيا».

---

(١) البدايوني والمتقي عالمان ربانيان ، ومن كبار الزهاد والمربين ، ولدا ونشأا في الهند.

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة المرققة حتى لفت نظري فريق يدخل من باب النساء في حشمة وتستر، بعيد عن كل ما ينافي الإسلام وآدابه من الزينة الظاهرة والتبرج ، وتقدم هذا الفريق من المسلمات الصالحات ، من شعوب مختلفة وبلاد متنائية ، من عجميات وعربيات ، وشرقيات وغربيات ، وتكلمن في صوت خافت ، وأدب ظاهر:

«نصلي ونسلم عليك يا رسول الله! تسليم من عظمت عليه منتك ، فقد أنقذتنا بإذن الله وحوله من تقاليد الجاهلية، وظلم المجتمع ، وجور الرجال ، وحرمت وأد البنات ، وحذرت من عقوق الأمهات ، وقلت: «الجنة تحت أقدام الأمهات» وأشركتنا في الإرث وبينت نصيبنا أماً وأختاً وبنتاً وزوجاً ، ولم تنسنا في خطبتك العظيمة يوم عرفة ، فقلت: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله» إلى غير ذلك مما حثثت به الرجال على الإنصاف للنساء، وأداء حقوقهن وحسن عشرتهن ، جزاك الله عن جنسنا أفضل ما يجزي الأنبياء والمرسلين وعباد الله المحسنين.

ولم ينقطع عن أذني هذا الصوت الرخيم حتى سمعت حسيس قوم يدخلون من باب السلام ، والتفت إليهم فإذا هم مبتكرون للعلوم ومدونون للفنون ، أئمة النحو واللغة والبلاغة ، فيهم أبو الأسود الدؤلي ، والخليل بن أحمد الفراهيدي ، وسيبويه ، والكسائي، وأبو علي الفارسي، وعبد القاهر الجرجاني،

والسكاكي، وابن منظور ، ومجد الدين الفيروز آبادي ، وسيد مرتضى الزبيدي ، يريدون أن يبلغوا تحية علومهم ويدفعوا ضريبة ما عاشوا عليه واشتهروا به ، وسمت مكانتهم بفضله ، وسمعتهم يقولون في بلاغة وأدب: لولاك يا رسول الله ولولا الكتاب الذي نزل عليك، ولولا حديثك الذي نطقت به، ولولا هذه الشر يعة التي دانت بها الأمم ، واحتاجت لأجلها إلى تعليم اللغة العربية والتفقه فيها ، لما نشأت هذه العلوم التي كتب لنا شرف الزعامة فيها ،ولما كان نحو ولابيان ولا بلاغة ، ولما ألفت هذه المعاجم الكبيرة ودقق في مفردات اللغة العربية، ولما جاهدنا في سبيلها هذا الجهاد الطويل، ولما خضع العجم وهم في سعة من لغاتهم ، وغبطة بلهجاتهم لدراسة اللغة العربية والتعمق فيها ، ولما كان منهم هؤلاء الأعلام الذين أقر بفضلهم ونبوغهم أدباء العرب وجهابذة الأدب ، فأنت الرابطة يا رسول الله! بيننا وبين هذه العلوم الناشئة في الإسلام، النابتة في عهد رسالتك وإمامتك، وأنت الرابطة بين العرب والعجم. وأنت الذي ملأ الله بك هذا الفراغ ، ووصل البعيد بالقريب ، والعجمي بالعربي ، فكم لك من فضل على نبوغنا وعبقريتنا ، وكم لك من فضل على ثروة العلم ونتاج العقول ومحصول الأقلام! .

ولولا أنت يا رسول الله! لطويت اللغة العربية فيما طوي من اللغات واندرس من اللهجات، ولولا القرآن الكريم العظيم العربي المبين لتناولها المسخ والتحريف كما تناول اللغات الكثيرة،

وابتلعتها العجمة واللهجات المحلية وقضى عليها اللحن، ولكنه هو وجودك وشريعتك الخالدة ودينك العالمي وكتاب الله المعجز الذي منعها من العَفاء والدروس، وفرض سلطانها وسيطرتها على العالم الإسلامي كله، وغرس حبها وإجلالها في قلب كل مسلم، فأنت الذي خلد الله بك هذه اللغة، وضمن بقاءها وانتشارها وسلامتها، فلك على كل من ينطق بها أو يكتب فيها أو يعيش بها أو ينادي إليها فضل لا يجحد».

ولم أنته من مقالتهم حتى استرعى انتباهي قوم يدخلون من باب عبد العزيز، خليط من البشر، ومزيج من الأمم، فيهم أعظم سلاطين العالم وأعظم ملوك عرفهم التاريخ، فيهم الوليد بن عبد الملك، وهارون الرشيد، ومحمود الغزنوي، وملك شاه السلجوقي، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، وسليمان القانوني العثماني، وأورنك زيب عالمكير التيموري الهندي، وقد نحَّوا الخدم ورجال الشرطة عنهم وتركوهم وراء الباب، يتقدمون في هيبة وتواضع، غضيضة أبصارهم، خافتة أصواتهم واستعرضت أسماءهم وأدوارهم والدنيا الواسعة التي كانوا يحكمونها والسيطرة العظيمة التي كانوا يتمتعون بها، فمنهم من كان يحكم دولة لا تقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل[١]، ومنهم من قال مرة

---

(١) المراد به الوليد بن عبد الملك.

لسحابة مرت به: «أمطري حيث شئت. . . فسيأتيني خراجك»[١]، ومنهم من اتسعت مملكته حتى استطاع أن يأمر بأن يدفع إلى أصحاب سفن جيحون أقصى الشرق أجرتهم من مالية أنطاكية في أقصى غرب المملكة، وحضر رسول القيصر ليدفع إليه الخراج فما تسلم منه إلا على باب كاشغر[٢]، ومنهم من كان يرهب فيه أوربا، وتمتنع الكنائس من ضرب الأجراس، إذا دخل المسلمون في بلادهم احتراماً لدينهم وإشفاقاً من سلطانهم[٣]، ومنهم ومنهم ومنهم. . .

رأيتهم يتقدمون ليصلُّوا في مسجد الرسول، ويسلموا على صاحبيه، يعتبرون ذلك أعظم سعادة لهم وأكبر شرف، ويتمنون لو رفعت هذه الصلاة، ولو قبل هذا التسليم، ويسمح لهم بالوقوف في مصلاه، والوقوف أمام مرقد الرسول يقومون بواجب الإجلال والتكريم، والاعتراف بالجميل، رأيتهم يتقدمون إلى الإمام تقصر خطاهم، وتتعثر أقدامهم، والمهابة تملأ قلوبهم حتى وصلوا إلى الصُّـفَّـة ـ وهو مكان فقراء الصحابة ـ ووقفوا أمامها ينظرون إليها نظر الإكبار والإجلال، ونظر الحياء والاحتشام، وصلوا بجوارها تحية للمسجد، ثم تقدموا إلى القبر الشريف فسلموا على نبيهم كما

(١) المراد به هارون الرشيد.

(٢) هو ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي.

(٣) هو سليمان بن سليم العثماني.

شاء حبهم وإجلالهم وكما شاء علمهم وإيمانهم، متأدبين بآداب الشرع، متقيدين بشريعة التوحيد، وسمعتهم يقولون: «لولاك يا رسول الله! ولولا جهادك ودعوتك التي وسعت الآفاق وفتحت البلاد، ولولا دينك الذي آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالم إلى حياة الشرف والطموح والمغامرة، فأسسوا دولاً واسعة وفتحوا بلاداً شاسعة، وجبوا الخراج من الأمم التي كانت تسوقهم بالعصا وترعاهم كالغنم، فلولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ومن الانطواء على النفس والحياة القبلية الضيقة إلى غزو العالم وفتح الأمم لما ارتفعت لنا راية، ولا رويت لنا رواية، ولبقينا في صحارينا القاحلة وفي أوديتنا الضيقة المظلمة، نتصارع ونتناحر، يأكل القوي منا الضعيف ويظلم الكبير منا الصغير، طعامنا أفقر طعام، وعيشنا أخس عيش، لا نفكر في مكان أوسع من هذه القرية الصغيرة التي نعيش فيها ولا في مجموع من البشر أكبر من هذه القبيلة الصغيرة التي نرتبط بها، أسماك بركة وضفادع بئر، نعيش في عالم من نفوسنا وتجاربنا المحدودة ونتغنىٰ بمجد آبائنا الجهلاء السفهاء، ولكنك يا رسول الله! ألقيت علينا ضوءاً من دينك تفتحت به عيوننا، وتوسع به خيالنا، فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع، ورابطته الجامعة، وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة، نحارب الشرك والوثنية، والجهالة والظلم، فأسسنا هذه الدولة العظيمة ونعمنا ونعم أولادنا وإخواننا

في ظلها قروناً، وها نحن أولاء، نقدم إليك تحياتنا ونقدم إليك ضريبة الإجلال والتكريم والحب والتعظيم، وهي ضريبة نقدمها طوعاً واختياراً ونتشرف بتقديمها ونعترف بتقصيرنا في جنب دينك الذي أسعدنا الله به وتطبيق أحكامه وتنفيذ قانونه، ونستغفر الله تعالى، إنه هو الغفور الرحيم».

وقد كنت مصروفاً إلى هؤلاء الملوك، أرى وجوههم الخاشعة وأسمع كلامهم الرقيق، الذي لم أسمعه أبداً منهم، إذ تقدم فريق آخر مشى في صفوف الملوك من غير اكتراث واهتمام، لا يخشى لهم سطوة ولا يراعي لهم حرمة، فقلت شاعر أو ثائر، فإذا هو مجموع من الفريقين، فيهم السيد جمال الدين الأفغاني، والأمير سعيد حليم، والزعيم محمد علي الهندي، والشهيد حسن البنا، والشاعر التركي محمد عاكف، والشاعر محمد إقبال، وقدموا الأخير ترجماناً لهم يقول: «أشكو إليك يا رسول الله! من قوم لا يزالون يعيشون في رفدك، ويأكلون من فتات مائدتك، وينعمون بالحرية والشرف في بلاد أنت حررتها من حكومة الظالمين وأخرجتها إلى ضوء الشمس، إنهم يحاولون أن ينقضوا الأساس الذي قامت عليه هذه الأمة العظيمة، وهذا الصرح العظيم، ويريدون أن يوزعوا أمتك الواحدة في قوميات وعصبيات كثيرة، ويحيوا ما أمتَّه ويبنوا ما هدمته، ويرجعوا بهذه الأمة إلى الجاهلية التى أخرجتها منها للأبد، ويقلدوا في ذلك أوربا التائهة الحائرة

المفلسة، ويبدلوا نعمة الله كفراً ويحلوا قومهم دار البوار، إن الصراع بين مصباحك المنير وشرارة أبي لهب قد عاد من جديد، وقد انضم إلى معسكر أبي لهب كثير من الناطقين بلغتك، وعادوا يتغنون بأمجادهم الجاهلية والأصنام التي حطمتها، إنهم المطففون الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، نالوا منك كل بر عاشوا به، وكل قوة اعتزوا بها، ثم إنهم يأخذون بنواصي شعوبهم التي يحكمونها ويريدون أن يلقوها في أحضان أوربا وفلسفاتها الجاهلية من قومية واشتراكية وشيوعية.

ها هي الأوثان التي أخرجتها من جوف الكعبة تعود أو تعاد إلى الشعوب المسلمة السليمة البريئة بأسماء جديدة وبثياب جديدة، إني أرى في بعض أجزاء العالم العربي الذي يجب أن يكون معسكرك ثورة لا فاروق لها، وردة لا أبا بكر لها. مني ومن جميع أصحابي الذين أتشرف بتمثيلهم والتعبير عما في ضمائرهم إليك أفضل التحيات وأشرف التسليمات، وأؤكد لك وأشهد الله على ما أقول أننا براء من الزعماء والعظماء الذين ولوا وجوههم شطر الغرب وانصرفوا عن قبلة الإسلام وشطره، والذين لا صلة لهم بك ولا شأن لهم بدينك، إننا ندين لك بالولاء والوفاء وسنظل متمسكين بحبل الإسلام حتى يأتي وعد الله ونلقى ربنا».

ولم تنته هذه الكلمة المؤمنة البليغة حتى ارتفع صوت المؤذن عالياً على منائر مسجد الرسول ﷺ: الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر.

وأفقت من غفوتي وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ، وإذا بي أمام الواقع، رجال في الصلاة، ورجال في تلاوة القرآن، وجموع من المسلمين ووفود من العالم الإسلامي، تسلم على الرسول ﷺ، وخليط من الأصوات والانطباعات والعواطف.

* * *

من غار حراء[1]

طلعت جبل النور ووقفت على غار حراء وقلت لنفسي: هنا أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ، ونزل عليه الوحي الأول، فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً وحياة جديدة، إن العالم ليستقبل كل يوم صباحاً جديداً، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً لا جدة فيه ولا طرافة، ولا خير فيه ولا سعادة، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الإنسان ولم تستيقظ فيه الإنسانية، واستيقظت فيه الأجسام ولم تسيقظ فيه القلوب والأرواح، وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب في تاريخ العالم، ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذي أشرق نوره على كل شيء، واستيقظ فيه الكون وتغير مجرىٰ التاريخ.

لقد كانت الحياة كلها أقفالاً معقَّدة وأبواباً مقفلة، كان العقل مقفلاً أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مقفلاً أعيا فتحه الوعَّاظ والمرشدين، كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث

(١) حديث أذيع من محطة الإذاعة السعودية بمكة عام ١٩٥٠م.

والآيات، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية، والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كـانـت المحكمـة مقفلـة أعيـا فتحهـا المتظلميـن والمتحـاكميـن، كـانـت الأسـرة مقفلـة أعيـا فتحهـا المصلحيـن والمفكرين، كان قصر الإمارة مقفلاً أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمشترعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال، فخابوا وأخفقوا، فإن القفل لا يفتح بغير مفتاحه، وقد ضيَّعوا المفتاح من قرون كثيرة، وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم، فإذا هي لا توافق الأقفال، وإذا هي لا تغني عنهم شيئاً، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلاتهم.

ففي هذا المكان المتواضع، المنقطع عن العالم المتمدن، على جبل ليس بمخضب ولا بشامخ، تمَّ ما لم يتم في عواصم العالم الكبيرة، ومدارسه الفخمة، ومكتباته الضخمة، هنا منَّ الله على العالم برسالة محمد ﷺ، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، ففتح به هذه الأقفال المعقَّدة قفلاً قفلاً، وفتح به هذه الأبواب المقفلة باباً باباً، وضع هذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشط، واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس،

ويتوصَّل من العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام، وكان قبل ذلك محامياً مأجوراً يدافع عن كل قضية حقاً وباطلاً.

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه، وعلى شعوره الميت فانتعش وعاش، وتحوَّلت النفس الأمارة بالسوء إلى نفس لوامة، ثم إلى نفس مطمئنة، لا تسيغ الباطل ولا تتحمَّل الإثم حتىٰ يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته، ويلح على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها، ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التي هي أشد من القتل، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرىٰ ويخفيه في لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس، ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه، كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر، ولا ترق ولا تلين، فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث، وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم، وتحنو على الضعيف.

وضع هذا المفتاح على القوىٰ المخنوقة والمواهب الضائعة، فاشتعلت كاللهيب، وتدفَّقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح، فكان راعي الإبل راعي الأمم وخليفة يحكم العالم، وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول ويحكم الشعوب العريقة في القوة والمجد.

وضع هذا المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون، وسقطت قيمة العلم وهان المعلم، فذكر من

شرف العلم وفضل العالم والمتعلم، والمربي والمعلم، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونَفَاق، وأصبح كل مسجد من المساجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلماً لنفسه، معلماً لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم والدين.

وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضياً عادلاً، وكل حاكم مسلم حكماً مقسطاً، وأصبح المسلمون قوَّامين لله شهداء بالقسط، وجد الإيمان بالله وبيوم الدين، فكثر العدل وقل الجدل، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجَور.

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التَّطفيف بين الوالد وولده، والأخ وإخوته، والرجل وزوجته، وتعدَّىٰ من الأسرة إلى المجتمع، فظهر بين السيد وخادمه، والرئيس والمرؤوس، والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطففين، إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الإيمان، وحذَّرها من عقاب الله وقرأ عليها قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1] وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله فقال: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيَّـته»[2].

(١) الآية ١ من سورة النساء.

(٢) حديث صحيح.

وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة، ومجتمعاً عادلاً، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالأمانة، وخوفاً شديداً من الآخرة، حتى تورَّع الأمراء وولاة الأمور وتقشّفوا، وأصبح سيد القوم خادمهم، ووالي الأمة كولي اليتيم، إن استغنىٰ استعف، وإن افتقر أكل بالمعروف. وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهّدهم في الدنيا ورغّبهم في الآخرة، وأضاف الأموال إلى الله، فقرأ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] وقرأ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2] وحذّرهم من الاكتناز وادّخار الأموال وعدم الإنفاق في سبيل الله، فقرأ عليهم: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[3].

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن

---

(١) الآية ٧ من سورة الحديد.

(٢) الآية ٣٣ من سورة النور.

(٣) الآيتان: ٣٤ و٣٥ من سورة التوبة.

الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنياً فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضياً فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان والياً فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في دورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبَّرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا، متغلباً على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة راشدة، مؤثرة للمبادىء على المنافع، والهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها إيمان وعمل صالح، وصدق وإخلاص، وجد واجتهاد، وعدل في الأخذ والعطاء وإنصاف مع النفس والغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي، وتمثَّلت لي الحياة الإسلامية

الأولىٰ بجمالها وتفاصيلها كأني أشاهدها وأتنفس في جوها، وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

وحانت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، فقلت إني لأرىٰ أقفالاً جديدةً على أبواب الحياة الإنسانية، وقد قطعت الحياة مراحل طويلة، وخطت خطوات واسعة، وتعقدت الحياة، والتوت، وتطورت المسائل وتنوعت، وتساءلت هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح، ولمست هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرىٰ وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدت أن هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادة والقوة، ولا يُعنىٰ إلا بذاته وشهواته، وأنه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذات وإرضاء الشهوات، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء المدنية، فإذا كان تاجراً فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها، ويبرزها عند غلائها، ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيراً فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملاً فهو العامل المطفف، الذي يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه، وإذا كان غنياً، فهو الغني

الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان والياً، فهو الوالي الغاش الناهب للأموال، وإذا كان سيداً فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا يرىٰ إلا فائدته وراحته، وإذا كان خادماً فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازناً فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيس جمهورية، فهو المادي المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وجماعته ولا يعرف غيره، وإذا كان زعيماً أو قائداً فهو الوطني أو القومي الذي يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرىٰ والشعوب الأخرىٰ، وإذا كان مشترعاً فهو الذي يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعاً اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفاً اكتشف الغازات المبيدة للشعوب المخربة للبلاد، والقنبلة الذرية، التي تُهلك الحرث والنسل، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ، لم يرَ بأساً بإلقاء هذه القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوَّن المجتمع وتأسست الحكومة، فكان مجتمعاً مادياً اجتمع فيه احتكار التاجر، وثورة الفقير، وتطفيف العامل، وشح الغني، وغش الوالي، واستبداد السيد، وخيانة الخادم، وسرقة الخازن، ونفعية الوزراء، ووطنية الزعماء، وإجحاف المشترع، وإسراف المخترع والمكتشف، وقسوة المنفذ، وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة، تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها، كالسوق السوداء وفشو الرشوة

والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي، وأصبح المفكرون والمشترعون لا يجدون حلاً لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرىٰ، بل إن حلولهم القاصرة ومعالجاتهم المؤقتة هي التي تسبب أزمات جديدة. وتنقلوا من حكومات شخصية إلى ديمقراطية، إلى دكتاتورية ثم إلى ديمقراطية، ومن نظام رأسمالي إلى نظام اشتراكي إلى شيوعي، وإذا الوضع لا يتغيَّر لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغيَّر، ويجهلون أو يتجاهلون في كل ذلك أن الفرد هو الفاسد المعوج، ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس وأنه فاسد معوج لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه، لأنهم ـ على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر ـ لا يملكون ما يُصلحون به الفرد ويُقوِّمون اعوجاجه، ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء، لأنهم أفلسوا في الروح، وتخلوا عن الإيمان، وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الإيمان ويُعيد الصلة بين العبد وربه، وبين هذه الحياة والحياة الأخرىٰ، وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق، وفي الأخير أدَّىٰ بهم إفلاسهم الروحي وماديّتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير، التي تبيد شعباً بأسره وتخرب قطراً بطوله، حتىٰ استهدفت الحضارة والحياة البشرية ـ إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات ـ للنهاية الأليمة.

* * *

ميلاد عالم جديد[1]

إذا تساءلنا ما هو اليوم ـ من أيام التاريخ ـ الذي يستحق من الإنسانية أعظم تقدير وإجلال، ويستحق أن يذكر فلا يُنسىٰ، ويستحق أن يعتبر اليوم الخالد والخط الفاصل في أدوار التاريخ، وبين عهد وعهد، بل بين عالم وعالم؟.

وإذا تساءلنا ما هو اليوم الذي تشارك في إجلاله والاحتفال به وإبداء السرور فيه الإنسانية على اختلاف طبقاتها، واختلاف أممها وشعوبها، واختلاف نزعاتها وفلسفاتها، لأنها سعدت فيه بعد شقاء طويل، ونهضت فيه بعد عثرة دامت قروناً؟.

وإذا تساءلنا ما هو اليوم الذي يعتبر ميلاد العالم الجديد، وفاتحة العهد السعيد، ورمز انتصار الفضيلة على الرذيلة، وقوىٰ الخير على قوىٰ الشر، والعدل والمساواة، والرحمة والمواساة، على الشقاوة والقساوة، والهمجية والضراوة، وانتصار الحياة المنظمة والشريعة الكاملة على شريعة الغابات وقانون العصابات،

---

(١) حديث أذاعته محطة دلهي الهند بمناسبة شهر ربيع الأول.

وبالاختصار انتصار العلم والإيمان على الجاهلية بأوسع معانيها انتصاراً خالداً؟ .

وإذا تساءلنا ما هو اليوم الذي ولدت فيه قوة جديدة نشيطة لمكافحة الشر وصد تيار الفساد، لتكوين المجتمع الجديد القائم على الإيمان والعمل الصالح والتقوىٰ وخدمة الإنسانية، مؤلفة من أفضل رجال «أقل الناس تكلفاً، وأبرهم قلوباً، وأعمقهم علماً»[١] يغامرون بحياتهم وإمكانياتهم وما هم فيه من رفاهية وسعة عيش وهناء بال في سبيل سعادة المجموع البشري، وإخراجه من ظلمات العصر القديم إلى نور العصر الجديد، ومن عبادة الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ويتحملون في سبيله كل غائلة وخسارة وكل تطور وانقلاب، لا يثنيهم عن ذلك عداء أو خلاف، ولا يحملهم على عكس ذلك وداد أو صداقة: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾[٢] .

وإذا تساءلنا ما هو اليوم الذي ولدت فيه الأمة العربية ولادة جديدة، بل ولدت فيه لأول مرة وظهرت على مسرح التاريخ أول مرة واستحقَّت أن تُسمىٰ «الأمة» أول مرة، فقد عاشت قبل ذلك

---

(١) من كلام سيدنا عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ في وصف الصحابة.

(٢) الآية ٥٤ من سورة المائدة.

قبائل متشتتة، وعصابات متناحرة، وسيادات متحاربة، وشعباً يعيش على حاشية الأمم، وفي عزلة عن العالم، لا شأن له في مجاري الأمور أو مصير الأمم، وسياسة الدول ومناهج الحياة، وأخلاق المجتمعات، واتجاه الإنسانية وميولها، ولا سهم له في المكتبة العالمية، غير قصائد قيلت في حوادث محلية وأغراض تافهة، تجلت فيها عبقريته اللغوية، وحريته الفردية، وقوته في التعبير وسعة لغته، يقولها فتنتشر في باديته وحواضره، وتبلغ أوج التقدير والاحترام، فتعلَّق في الكعبة من غير أن يطلع عليها الأدباء والمثقَّفون في خارج الجزيرة العربية أو تنقل إلى لغات العالم المتمدن، ويعرف هذا الشعب بصدق لهجته وقوة عارضته وجودة خياله وشغفه بالحرية والمساواة والبساطة والتَّقشف في الحياة، وشدة القتال في الحروب وحسن الثبات، والمحافظة على الأنساب، أفضل أخلاق وسجايا ومواهب يعرف بها شعب من شعوب البادية، فإذا بهذا الشعب المنطوي على نفسه القابع في بطون جزيرته، يصبح أمة تقرر مصير الأمم، وتغير اتجاه العالم، وتفرض على المجتمع الإنساني مدنيتها المقتبسة من الدين الجديد، المتشبعة بروح التقوىٰ والأمانة، وتصبح لغتها المحصورة في جزيرتها لغة العالم الجديد المقدسة، يحرص على دراستها وإتقانها والتَّفنن في علومها وآدابها كبار الأذكياء في العالم، وتصبح معرفتها والتفقه فيها واجباً من واجبات الدين وشعاراً من شعائر المتدينين،

لا يبلغ بغيرها رجل إلى ذروة الشرف، ولا يقلد منصباً من المناصب في القضاء والفتوىٰ والتعليم.

وإذا تساءلنا ما هو اليوم الذي تجدَّد فيه الأمل في الإنسانية ومستقبلها، وغلب التَّفاؤل على التشاؤم المؤسس على المآسي والمهازل، التي قام بها الإنسان في كل بقعة من بقاع البسيطة، وفي كل أمة من الأمم، والمؤسس على سخافة الإنسان في العقل والعقيدة والعمل، ومحاولته لتدمير المدنية وعبادة الإنسانية، حتىٰ يئس الإنسان نفسه من مستقبله، وحرم نفسه حق البقاء وجدارة الحياة، واستحقَّ العقوبة العاجلة وانقراض الجيل الإنساني، ولكن بطلوع فجر هذا اليوم استحق أن يفسح في أجله، ويمد في حياته، ويعتمد عليه في بناء المجتمع الجديد، وفي إحياء ما اندرس من الفضائل والمعاني السامية، وفي إعادة كرامة الإنسان إلى الإنسان، وفي الأخذ على يد الظالم والانتصار للمظلوم، وفي الحياة الجديدة التي تليق بشرفه وتتفق مع غاية خلقه، ومع أهداف هذا الكون، وكان هذا اليوم تمديداً لحياة الإنسان على هذا الكوكب، وفرصة جديدة له في البقاء والازدهار، يدين لهذه المنَّة كل من ولد بعد هذا اليوم، وكل من عاش في العصر الذي يليه.

كان الجواب من غير نزاع ومن غير تردد، هو اليوم الذي وُلد فيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلىٰ الله عليه وآله وأصحابه وسلم.

إنه هو اليوم الذي وجدت فيه الإنسانية الإيمان الذي فقدته، وأفلست فيه من مدة طويلة، الإيمان بفاطر هذا الكون ووحدانيته، والإيمان بمصيرها وبالبعث بعد الموت بعد ما يئست من مستقبلها، وتهالكت على هذه الحياة وعبادة الشهوات، والإيمان بسلسلة الرسل وهُداة السبل، بعد ما تسلَّط عليها الدَّجالون المحترفون، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والإيمان بقيمة الإنسان وكرامته بعد ما أنكرتها وثارت عليها وامتهنتها أمام الأحجار والأشجار، والحيوانات والأنهار، والملوك والأمراء والأغنياء والأقوياء، فأصبحت تؤمن بأن الدنيا خلقت لها وأنها خُلقت لله، وأن لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوىٰ، كل بني آدم من آدم وآدم من تراب، وأصبحت تؤمن بالحقوق والواجبات، فلكلٍّ حق وعليه واجب. وليكن رفيقاً في المطالبة بحقه مقتصداً في التمتع به، قوياً نشيطاً في أداء واجبه «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته» والنساء شقائق الرجال ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، إلى آخر ذلك من التعاليم المتَّزنة والتَّوجيهات الحكيمة، التي جاء بها محمد ﷺ، وبفضلها وجد المجتمع الرشيد السعيد الفاضل الكامل الذي لا يوجد له نظير في التاريخ، وعلى أساسها يقوم هذا المجتمع في كل عصرٍ ومصرٍ وفي كل زمانٍ ومكانٍ.

ولم يكن هذا اليوم ظهور لهذه المبادىء وتعريف بهذه التعاليم

المتَّزنة والتَّوجيهات الحكيمة ، فقد كان ذلك مراراً في فتراتٍ مختلفة من الزمان ـ وإن لم تكن في هذا الطور الكامل ـ وكانت صيحات ترتفع حيناً بعد حين ثم تغيب في دياجير الظَّلام ويبتلعها المجتمع الفاسد ، لأنه ليس وراءها فرد يجازف لأجل ذلك بحياته وأسرته وكل ما يتمتَّع به من شرف ومركز ومنعة ، ولم يكن وراءها جماعة تراهن في سبيل ذلك بكل ما تملكه من حاضر أو تؤمل فيه من مستقبل ، ولكن البعثة المحمدية كانت مقرونةً ببعثة أمة جديدة ، أمة تعيش لهذه الدعوة المقدسة وتعيش على هذا الجهاد المقدس : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] أمة تهب نفسها لهذه الدعوة وتربط حياتها بحياتها .

ويتزعم هذه الأمة الجديدة الخالدة ـ التي نيطت بها هذه الدعوة ـ العرب الذين آمنوا بصاحب هذه الرسالة الجديدة بصدق وإخلاص ، ووضعوا أيديهم في يده وحكموه في نفوسهم وأموالهم وأملاكهم ، وأخضعوا له رغباتهم وإراداتهم ، فكانوا أصحابه الأولين وجند الله المنصورين ، وحملة هذه الدعوة وأمناءها ورسلها وأصحاب النصيب الأوفر في فقهها ووعيها ، والاستماتة في سبيلها وتحمل الخسائر والنكبات لأجلها ، حتى ارتبط مستقبل

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

هذه الدعوة بمستقبلهم ، وبقاؤها ببقائهم حتى استطاع الرسول وساغ له أن يقول في ساحة بدر «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»[١] .

ومكن الله لهؤلاء العرب في الأرض، وأعزَّهم بعد الذل، وأغناهم بعد الفقر ، وقواهم بعد الضعف، ووحدهم بعد الفرقة ، وأسبغ على لغتهم المحصورة في جزيرتهم القدسية الدينية ، وكتب لها الانتشار في العالم ، وغرس حبها في القلوب حتى امَّحت أمامها كثير من اللغات ، وكانت لغة الشرق الأوسط الوحيدة، ونطق بها بنو آدم من ضفاف دجلة إلى الجبل الأطلس ، وأصبحت لغة الدين والعلم والتأليف في العالم الإسلامي الجديد الفسيح، ومنح العرب مركزاً سيبقىٰ معهم على رغم الحركات الشعوبية في العالم الإسلامي، والقوميات المتطرفة ما داموا متدينين بدين الإسلام ، مؤمنين بتعاليمه، عاملين بفرائضه ، عارفين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فضله ومنته ، مصدقين بأنه هو الذي نال به الإنسان الكرامة، ونال به العرب الشرف والزعامة .

هذا هو العالم الجديد الذي يعيش فيه الناس ويغتبطون به ويتمتعون فيه بالحرية والمساواة، وكثير من الحقوق التي كانت مهضومة مهجورة في العالم القديم، وتتقدم فيه المدنية إلى الأمام،

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ، غزوة بدر .

وهذا هو العالم الذي يعيش فيه العرب متمتعين بمركز جديد، وبحياة جديدة وبلاد لا صلة لهم بها إلا عن طريق الإسلام وطريق محمد عليه السلام ، ولا عهد لهم بها إلا بعد البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والتحية.

ولا نشعر في غالب الأحيان أن مصدر هذا الانقلاب ومصدر هذه السعادة التي نتمتع بها جميعاً هو هذا الحادث السعيد الذي حدث في هذا اليوم ، ولادة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم خاتم الرسل وإمام الكل ومنير السبل.

إن ذلك اليوم، هو اليوم الذي يحق أن تنشد فيه الإنسانية في اعتزاز واهتزاز وبلاغة وإيجاز:

ولـــد الهــدىٰ فـــالكـــائنـــات ضيـــاء

وفـــم الـــزمـــان تبســـم وثنـــاء

* * *

في مهد الإسلام[1]

قالوا لي: حدثنا عن الحجاز وعهدك به قريب ، قلت: نعم، إن الحديث عن الحبيب حبيب .

لا أتذكر ذلك اليوم الذي كان فيه ذكر مكة والمدينة جديداً على أذني ، وكان اليوم الأول الذي سمعت فيه عن مولد الرسول ومهد الإسلام ، وعن مدينة الرسول ومهاجره عليه الصلاة والسلام ، وقد نشأت شأن أولاد المسلمين في بيئة لا ينقطع عنها ذكر الحجاز وبلديه المشرَّفين ، وكان أهل البلاد دائماً يسقطون حرف العطف في كلامهم الهندي السريع فيقولون «مكة مدينة» فكنت أتخيل وأنا طفل صغير أنهما بلد واحد ، وقلما ذكروا مكة إلا وذكروا المدينة وكذا بالعكس ، فلم أميز بينهما إلا بعد ما كبرت سني وصرت أعقل ، وعرفت أنهما بلدان مستقلان بينهما مسافة لا يستهان بها .

---

(١) حديث أذاعته محطة دلهي الهند في سلسلة أحاديث تحدث بها المؤلف عن مشاهداته وانطباعاته على أثر زيارته للشرق العربي ، عام ١٩٥١ م .

لقد سمعت في صغري عن الجنة ونعيمها ، وسمعت بنفس الحنين وبنفس الإجلال عن الحجاز وبلديه ، فنشأت على الحنين إلى المجموع ، نشأت على الحنين إلى الجنة والحجاز ، فلما تقدمت في السن عرفت أن الجنة لا سبيل إليها في هذه الحياة فصبرت وتجلدت وعزيت نفسي ، أما الحجاز فقالوا الوصول إليه ميسور ، وقرأت أن قوافل الحجاج غادية رائحة ، فلم أجد عنه عزاء ولم أجد لنفسي عذراً في عدم الوصول إليه ، ثم تقدمت في السن أيضاً ، وقرأت سيرة الرسول ﷺ وتاريخ الإسلام فتجدد الشوق القديم واشتعل الحنين في الضلوع ، وحقق الله أمنيتي وتشرفت بالحج والزيارة.

وقفت في هذا البلد الذي تحيط به جبال جرداء سوداء لا يكسوها عشب ولا خضرة، ولا تجوس خلالها الأنهار ، متجرد عن كل ما يسترعي الاهتمام وعن كل ما يشرح الصدر ويسر النفس من فتنة المناظر ، وجمال الطبيعة ، ورقة الهواء ، وعذوبة المياه ، فقلت: ما أفقر هذا البلد في المظاهر ، وما أكبر فضله على الإنسانية والعالم المتمدن ، فلولا هذا البلد الذي لا يتطاول بالمظاهر والمناظر لكان العالم قفصاً ذهبياً يبقى فيه الإنسان طائراً سجيناً ، فهذا هو البلد الذي أخرج الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها، وأعاد إلى الإنسانية حريتها وكرامتها ، ووضع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها.

وما قلت لولا هذا البلد إلا وخطر ببالي أن أزن عواصم العالم ومدنها الكبرى كلها في هذا الميزان العادل ، وأرى ماذا ينقص البشرية وماذا ينقص الحضارة لولا هذه المدن وعرضتها أمامي بلداً بلداً ، فرأيت أن هذه المدن ، إنما كانت تعيش لنفسها ولحفنة من البشر ، وأنها لم تضف إلى ثروة الإنسانية شيئاً كبيراً ، وقد جنت على المدنية والإنسانية في مختلف أدوارها ، فكم أفقرت في سبيلها البلاد ، وكم شقيت أمم لسعادة أمة ، وشقيت أمة لسعادة أفراد ، فلا على الدنيا ولا على البشرية ولا على الحضارة إذا لم تكن هذه المدن في خريطة الأرض ولم تزدهر فيها المدنية ولا العمران.

أما لولا مكة لتجردت الإنسانية من أجمل ما عندها من معان وحقائق ، وعقائد وأخلاق، وعلوم وفضائل. هنا وجد العالم إيمانه الذي فقده منذ قرون ، ووجد العلم الصحيح الذي ضيعه في غياهب الجهل والظنون ، ووجد الكرامة التي أهدرها الطغاة والظالمون ، وبالإجمال هنا وجدت الإنسانية من جديد، ووضع التاريخ من جديد.

ولكن ما لي أقول لولا مكة! أما كانت مكة بجبالها ورمالها بل ببيتها وزمزمها هذه القرون الطويلة التي تقدمت القرن السادس المسيحي لا تنكر من أمر هذه الإنسانية التائهة شيئاً ، ولا تمد إليها يد المساعدة ، محصورة بين جبالها ورمالها تعيش في عزلة عن العالم كأنها ليست من أسرة الإنسانية الشقيقة ، ولا رقعة من هذه

الأرض الفسيحة؟ بل أحرى بي أن أقول: لولا ابن مكة الذي تغير به مجرى التاريخ ، وانقلب به تيار الحياة واستأنف العالم سيراً جديداً إلى نحو جديد.

وهنا تمثلت لي مناظر مختلفة ، إني لأرى سيد قريش يطوف بالبيت وحده وهو موضع سخرية واستهزاء ، وتمتد إليه يد بالإهانة والإيذاء ، وهو مقبل على عمله خاشع متواضع ، ثم أراه بعد ما ينتهي من طوافه يحاول الدخول في البيت ، فيأبى عثمان بن طلحة سادن الكعبة وينال منه ، فيحلم ويقول: «يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت» [1] فيقول: لقد هلكت قريش يومئذ وذلَّت ، فقال: «بل عمرت وعزت يومئذ» ثم كأني أراه يوم الفتح يطوف بالبيت وحوله جمع من أصحابه الذين يفدونه بالأنفس والأرواح ويطلب سادن الكعبة فيقول: «هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء» [2].

لقد شهد التاريخ أنه لم يملك المفتاح الذي استطاع أن يفتح به الكعبة فحسب ، بل ملك المفتاح الذي فتح به أقفال البشرية المعقدة التي أعيت عقلاء العالم كلهم ، ذلك المفتاح هو القرآن الذي نزل عليه ، والرسالة التي أكرمه الله بها ، والذي لا يزال يقدم

---

(١) سيرة ابن هشام (فتح مكة).

(٢) عن المصدر السابق.

مساعدته لفض مشكلات جديدة، وفتح أقفال جديدة.

وتوجهت بعد الحج إلى المدينة المنورة على جناح الشوق يحدوني حادي الحب والوفاء، أتحمل متاعب السفر، وأتمثل ذلك الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نوراً وسكينة، ووصلت إلى المدينة المنورة، وصليت ركعتين في مسجد الرسول ﷺ وحمدت الله على ذلك، ثم وقفت وأنا مثقل بمنن لا أستطيع أن أكافئها ولا أستطيع أن أقضي حقها، وصليت عليه ﷺ وسلمت عليه ﷺ، وشهدت أنه ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين، وسلمت على صاحبيه الوفيين الأمينين، اللذين لم يعرف التاريخ البشري صاحباً أوفى لصاحبه منهما، ولا خليفة أقوى على حمل أعباء الخلافة منهما. رضي الله عنهما وأرضاهما، ثم توجهت إلى البقيع، تلك القطعة الصغيرة التي تحتضن أعظم ثروة في الصدق والصفاء والخلة والوفاء، وهناك رجال آثروا الآخرة على الدنيا، وآثروا الغربة والهجرة في سبيل الإيمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة، وآثروا جوار الرسول على جوار الأحبة والأقارب، فلم يبغوا عنه حولاً، ولم يطلبوا له بدلاً: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (١).

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

وتوجهت إلى أحد تلك القطعة التي مثلت أروع رواية وأعظمها تأثيراً على تاريخ الإنسانية ، رواية الإيمان واليقين ، رواية البطولة والوفاء ، رواية الحب الطاهر والولاء النادر ، وكأني أسمع من أنس بن النضر: «إني لأجد ريح الجنة من دون أحد»[1] ويقول سعد بن معاذ: «ماذا نصنع بالحرب بعد محمد ﷺ» وقد طار في الناس أنه قتل ، فيقول أنس: «ماذا نصنع بالحياة بعد محمد ﷺ» وهنا في أحد ترَّس أبو دجانة على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه، وهنا ترس طلحة بيده حتى شلت ، وهنا قتل حمزة ومثِّل به ، وقتل مصعب بن عمير أنعم فتيان قريش عيشاً ، ولم يجدوا ما يكفنونه به إلا الكساء الذي لا يغطي كل جسده ، يا ليت أحداً أعار العالم شيئاً من هذا الحب والولاء ، وأهدى للعالم شيئاً من الإيمان واليقين ، فتبدلت الأرض غير الأرض والعالم غير العالم.

قالوا لي: حدثتنا عن القاهرة والحياة فيها ، وعن دمشق ورجالها، فحدثنا عن الحجاز ، قلت: إن الحديث عن الحجاز له لون خاص، إنه يدور حول رجله العظيم، ويتصل برسالته وتاريخه، فإنه حديث عن مهد الإسلام وبلد الرسول عليه الصلاة والسلام.

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام.

البعثة المحمدية[1]

سرّح طرفك في عالم القرن السادس المسيحي ، ولا يفتننَّك الأبنية الشامخة المشيدة ، والملابس الفاخرة المزخرفة ، وقناطير الذهب والفضة المقنطرة ، فذلك ما تراه في مجموع الصور القديمة ودار الآثار العتيقة. ولكن انظر هل ترى للمروءة حياة في ناحية من نواحي الشرق والغرب ، احبس نفسك واستمع ، هل تحس لها عرقاً ينبض وقلباً يخفق؟!

ترى الحياة بحراً يزدرد فيه الحوت الكبير الحوت الصغير ، والعالم غابة يفترس فيها الأسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخروف ، لقد انتصر الشر على الخير والرذيلة على الفضيلة والأهواء على العقل والبطن على الروح ، لقد تطاولت الأرض السماء سفاهة ، ونصبت للفرقدين الحبائل.

أصبحت الدنيا سوق المناداة ، بضائعها كل ملك ووزير وغني وفقير ، يباعون بيع السلع، فهل ترى في هذا الغمار فتى يربأ بنفسه

---

(١) من رسالة (معقل الإنسانية) للمؤلف.

عن أن يباع بيع السلعة وينادي: إن هذا الجو الفسيح لا يسع لطيراني ، لقد كانت الحياة لا تقع مني بمكان ، فخلق الله لي حياة ثانية ، فكيف أبيع روحي وجوهر إنسانيتي بكسر من كسور هذا العالم الصغير؟

لقد صارت الشعوب والبلاد ، ثم القبائل والعشائر ، ثم الأسر والبيوتات دوائر صغيرة ، واعتاد أصحاب الطموح والكبرياء أن يسكنوا فيها كالأقزام ، لا يضيقون بها ذرعاً ، ولا يعرفون عنها بدلاً ، ولا يرون في خارجها حياة ، ولا يعرفون بشرية أوسع وعالماً أفسح ، لقد أصبحت الحياة تعاطياً في البيع والشراء وتسابقاً في المكيدة والخداع ، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح ولوعة قلب وسمو نفس.

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة ، وحشائش شيطانية ، فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية ، والحشرات السامة ، وفيها مستنقعات فيها أنواع العلق ، وفي الغابة كل سبع مخيف ، وكل طائر جارح ، وفي المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالإنسان ويمتص دمه ، ولكن لم يكن في هذا العالم المزدحم بالبشر من يستحق أن يسمَّى بشراً ، أما الرجال فقد لجؤوا إلى المغارات والأديار والكنائس واحتفظوا بدينهم وحياتهم ، أو مكثوا في تيار الحياة يتلهون بالفلسفة ويتغنون بالشعر ، وليس في المدينة رجل جد يكافح أعداء المدينة وينتصر للبشرية المظلومة.

وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها دبيب الحياة ، وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عششت عليها وباضت وفرّخت وهي تحسب أنها ميتة لا حراك بها ، وإذا ببيوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج إيوان كسرى، وخمود نار المجوس ، أما رأيت كيف تتناثر المباني المجصَّصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهر الأرض ، فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبي الأعظم ﷺ وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم؟ .

بعث محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ في مكة قلب العالم المتمدن المعمور ، فأرسل صيحة دَوَّت بها الغابات وجاوبتها الجبال ، وذلك قوله: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كلام وجيز يحمل في أثنائه عالم المعاني والحقائق ، ولقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتأثر ولم تتزلزل بشيء مثل ما زلزلت في هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة ، وأن الذهن البشري لم يضرب أبداً قبل هذه ضربة موجعة ، فتألم بها هذا الذهن البليد واستشاط غضباً وجن جنونه وقال: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [1] واعتقد قادة هذه

---

(١) الآية ٥ من سورة ص.

الحياة أنه أمر مبيت وخطة مدبرة ضد هذه الحياة السائدة ، وأنه لا بد من مكافحتها : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾[1] لقد كانت ضربه قاسية على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها يتأثر بها هيكل الحضارة والسياسة بجميع أركانه .

لقد كانت ـ ولا تزال ـ هذه الكلمة تعني أن هذه الحياة ليست أجمة برية وحشية لم يعتن بها معتن ، بل هي حديقة منسقة غرسها الله تعالى وتعهد تهذيبها وإصلاحها ، وأن الإنسان ريحانة هذه الحديقة ، وروح الربيع ، وكيف تذبل هذه الريحانة وتدوسها الأقدام ، أو تخطفها الطير ، أو تهوي بها الريح ، ولم تؤد مهمتها ، ولم تحل المحل اللائق بها ، فتقتضي فطرته أن يعبد الله وحده ، وتطالبه نفسه السامية ألا يقتنع بغير رضا الله ، ويقتضي شرفه وكرامته أن يجاهد في هذا السبيل ويبذل ما عنده من عقل ومواهب ، أو مال ومكاسب ، وليس للإنسان أن يتطامن لجسد أو روح ، أو جبل ونهر ، أو شجر وحجر ، أو ثروة مثر أو جاه وجيه ، أو سلطان ملك ، إنه ليسمو على كل مخلوق ويتضاءل أمام خالقه ، إن العالم لم يخلق إلا ليخدمه ويطيعه ، إن الله سبحانه وتعالى قد أسجد له الملائكة الذين هم حملة القوى الكونية ، ليعلم الإنسان أن هذا الكون خاضع له متواضع ، فيأمره

---

(١) الآية ٦ من سورة ص.

وينهاه ، ويستخدمه لمصالحه الطيبة ، ويسخره لمآربه العادلة (وذلك قوله لا إله إلا الله).

ثم إن حياة الإنسان هي السهم الوحيد الذي يملكه ، فإذا أصاب غرضه فياله من سهم مصيب ، وإذا طاش وأخطأ رميته فيا رزيئة رام ضيعِ سهمه الوحيد! وإن حياته لوسيلة كل سعادة في الدنيا والآخرة ، وإنها رأس بضاعته فأخلق به أن يكون ضنيناً بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها ، وألاَّ يضيعها في تجربة واختبار ، وفي مخاطرة وقمار ، وألاَّ يخبط فيها خبط عشواء ولا يركب متن العمياء ، فإنما هي حياته الوحيدة ، وما أقبح القمار في رأس المال وما أشده خطراً! فينبغي أن يسير مركب الحياة بدلالة خِرِّيت حاذق مجرب ، فإن المفازة موحشة وقطاع الطريق كثير. وأن يسير في ضوء النبوة والوحي ، فإن عالم القياس والتخمين ظلام في ظلام ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾[1]. وأن النبوة هي النور الوحيد في هذه الظلمات المتراكمة ، والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم ، والنبي هو المتصل بهذا المنبع ، والواسطة بين الحق والخلق في الهداية ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[2] وأن محمداً ﷺ هو آخر المتصلين بهذا المنبع ، وخاتم الأنبياء

---

(١) الآية: ٤٠ من سورة النور.

(٢) الآيتان: ٣ و٤ من سورة النجم.

والمرسلين الذي نسخ الله به الأديان ونصبه إماماً لكل زمان ومكان ، وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشرية ، ومعاني الحسن والإحسان ، وهو المثل الكامل للبشر في كل عصر ومصر ، وأن دينه الذي جاء به هو رسالة كل عصر ودواء كل داء ، فلا يتم الإيمان بالله ولا يمكن الوصول إليه إلا بالإيمان بالرسل عامة وبمحمد ﷺ خاصة ، وذلك قوله «محمد رسول الله».

وإن الإنسان ليحمل في رأسه طموحاً لا يشبع ، وهمة في قلبه لا تقف ، وروحاً في جسمه لا تني ، وقلباً في جنبه لا يطمئن ، فلا يروي غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق ، المتثاقل ، وإن طاعته وعصيانه لأوسع من أن يستوفي ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود ، فتلزم له حياة خالدة ، وعالم لا يعرف الثغور والأطراف ، ليست هذه الحياة إلا قطرة من يم إذا قورنت بالحياة الآخرة ، وليس هذا العالم إلا شبحاً إذا قوبل بالعالم الآتي ، ذلك هو الإيمان بالبعث والحياة الآخرة الذي هو تمام الإيمان ، وثالث الأركان في الأديان.

لقد بلغ الذهن الإنساني في القرن السادس الميلادي من الشلل الفكري وبلادة الحس غاية عجز معها عن أن يتخطى الماديات والمحسوسات وما يتصل بالجسم والبطن ، وأن يعتقد الإنسان اختصاصاً بالنبوة والوحي. لقد كانت لهم مقاييس ورثوها عن آبائهم ، فإذا رأوا بِدعاً من البشر أو مثالاً جديداً للإنسانية قاسوه

بمقاييسهم ، لقد كان بينهم رجال يرون أنهم المنتهى في العظمة الإنسانية ، فإذا نبغ فيهم عبقري، أو ظهر فيهم رسول قاسوه بهم، لقد أفرغوا جهدهم ، ونثروا كنانة فكرهم ، فلم يروا إلا أن محمداً ﷺ إما طالب ثراء ورخاء ، أو رائد سيادة وملك ، أو منتجع ترف ولهو ، وإذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا أنه لم يبعد النجعة ، فإنه لم يجرِّب طموحاً فوق طموح الملوك ، وتطاولاً أكثر من تطاول الأمراء والوزراء ، فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة ، فكلم محمداً ﷺ ، وكان ما قاله تمثيلاً صحيحاً لذهن ذلك العصر ، وتعبيراً صادقاً عن عواطفه ونفسيته قال: «يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت إنما تريد ملكاً ملكناك علينا»[١] .

وما أجاب به رسول الله ﷺ كان تمثيلاً صحيحاً للنبوة ، وعرضاً صادقاً لموقف الأمة الوليد ، فأثبت أنه لا يطمح إلى ثراء ورخاء ، أو شرف وترف ، إن نفسه عالية تسمو عن هذه الخسائس سمو السماء على الأرض ، إنه لا تهمه راحته الذاتية ورقيه الشخصي ، إنما يقلقه مستقبل البشر ، إنه لا يصنع لنفسه جنة شدَّاد ، بل يريد أن يعيد الإنسان المنفي إلى الجنة الخالدة التي أعدت له ، إنه لا يسعى ليسود قبيلة أو أمة ، بل يريد أن يخرج

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

الإنسان من حكم الإنسان ، كائناً من كان ، ويدخله في حكم سيده الذي هو رب السموات والأرض.

على هذا الأساس نهضت هذه الأمة ، وبهذه الرسالة انتشرت في العالم ، وإن ما أجاب به رسل المسلمين في مجالس رستم ، ويزدجرد ، يمثل تمثيلاً صادقاً لروحها ونزعتها ، قال ربعي بن عامر: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» ولمَّا أمكنهم أن يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفَّذوا فعلاً ما كانوا يدعون إليه غيرهم ، فخرج الإنسان من حكم الإنسان إلى حكم الله وعدله ، ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة ، بل كان الأمر والنهي لله. يقول الخليفة الأول: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» وقال عمر لعمرو بن العاص ـ وقد ضرب ابنه رجلاً من أهل مصر ـ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش في عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الأمة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو أجير ، فيضع الحمل على رأسه فيحمله إلى بيته ، وكان أكبر غني منهم يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل ، فيستهين بملذات هذه الحياة الفانية ، ويدخر طيباته للحياة الخالدة.

كان وجود هذه الأمة في كل ناحية من نواحي العالم رمزاً لحقيقة

غير الحقائق المادية واللذات الجسدية ، وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم وليداً أو ميتاً ، أن وراء القوى المادية قوة سماوية ، ووراء الحياة الفانية حياة خالدة ، فإذا ولد وليد صرخ في أذنه بهذه الحقيقة ، وإذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة ، إذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت ، وغاص الناس في بحر الحياة إلى آذانهم ، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية ، إذا بصوت يدوي حي على الصلاة حي على الفلاح ، فينكسر طلسم العالم المادي ، وتتجلى الحقيقة الروحية ، ويجري الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم ، وإذا ضرب الليل رواقه ، ومدَّ النوم أطنابه على هذا العالم الحي الصاخب فإذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب ، وإذا بمعين الحياة ينصب في وادي الموت ، وينبلج الصبح الصادق في الليل الغاسق ، وتتلقى الإنسانية الناعسة من مؤذن الفجر درساً في الحياة والنشاط والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة ، وإذا اغتر أحد بقوته وسلطانه ، وزها بكثرة ملئه وأعوانه ، وقال بلسان المقال أو بلسان الحال: «أنا ربكم الأعلى» أو «مالكم من إله غيري» قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من بقاع مملكته أو نفوذه ونادى «الله أكبر الله أكبر» فينادي بحكم الله في مملكته ، ويرغم أنف الإله الكاذب في سلطانه.

* * *

صلة مسلمي العجم بالنبي العربي ﷺ

(اطلعت على كلمة الأستاذ عتيق الرحمن السنبهلي منشىء مجلة «الفرقان» الشهرية التي تصدر في لكهنؤ الهند ، في التعليق على مقال الأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة «الأزهر» الذي أثار استنكار جميع أصحاب الضمائر والإيمان في العالم الإسلامي وسخطهم ، والكلمة دافقة بالحياة والقوة ، وهي تعرب عن وجهة نظر مسلمي الهند والبلاد العجمية ومدى ارتباطهم بالمقام النبوي الشريف ، ورأيت من حق هذه الكلمة المؤمنة أن أتولى نقلها وتعريبها ليطلع عليها إخواننا العرب).

يؤثر عن شاعر إيراني كبير [1] اشتهر بنبوياته الخالدة بيت سار به الركبان في عصره وبعد عصره ، يقول مخاطباً للرسول الأعظم ﷺ :

«اعتزيت مرة إلى كلبك، وتصببت عرقاً، وأطرقت حياءً، لأن

---

(١) هو الشاعر الإيراني الكبير الملقب في الشعر على عادة شعراء الفرس القدسي ، توفي سنة ١٠٥٦ ، عاش في الهند في عصر شاهجهان الامبراطور المغولي.

الاعتزاز إلى كلب من كلاب الحي في مدينتك إساءة أدب وغرور بالنفس»[١].

ويقول شاعر آخر من شعراء العجم:

«إن محمداً العربي هو الذي يتشرف به كل أحد في الدنيا والآخرة، فمن أبى أن يكون تراب عتبته تربت يداه ورغم أنفه».

إلى هنا وصل الشعراء والأدباء في العجم من الحساسية ورقة الشعور، والتواضع والتأدب لمقام الرسالة العظمى، وقد نشؤوا في بيئة عجمية بعيدة عن مهد الإسلام ومهبط الوحي، وعيِّروا بالعجمة والرطانة.

قارن ذلك بما صدر حديثاً عن قلم كاتب عربي كبير، في بلد إسلامي كبير، كان يعتبر كنانة الإسلام وقبلة الإسلام في مجلة تصدرها كبرى الجامعات الإسلامية وأقدمها وأشهرها في العالم الإسلامي، الأزهر الشريف:

«إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة، لأنها قامت على العقيدة ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول، وإن الوحدة

---

(١) ليس على المؤلف عهدة فيما بلغ إليه الشاعر في تصوير عاطفته، فإنه ناقل ومترجم، ولا شك أن الإنسان ـ وخاصة المسلم ـ أشرف من الكلب في إنسانيته وإيمانه، وقد قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الآية).

الصلاحية كانت جزئية خاصة ، لأنها قامت على السلطان ، والسلطان يعتريه الوهن فيزول .

أما الوحدة الناصرية فباقية نامية ، لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق ، والحرية في الرأي ، والديمقراطية في الحكم ، وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة»[١] .

هل يبلغ رجل يلفظ بكلمة الإسلام ، ويؤمن برسالة محمد عليه السلام في نزوة من نزوات الشباب ، وفي عثرة من عثرات اللسان إلى هذا الحد من الوقاحة وقلة الحياء ، والاعتداء على مقام الأنبياء؟ لقد عرف عن الماجنين المستهترين السكارى في بلادنا ، أنهم في سكرهم وثورتهم لا ينسون التأدب مع مقام الرسالة ، فإذا تناوله أحد الأشقياء بإساءة أو إهانة ، قامت قيامتهم وثارت ثائرتهم. وإلى القارىء الكريم قصة رواها صحافي معروف عن شاعر كبير في شبه القارة الهندية ، كان في طليعة شعراء الهوى والشباب ، ومن المدمنين للخمر والشراب ، وهو الشاعر «أختر الشيراني» الذي توفي قبل سنوات. يقول الأستاذ شورش الكشميري في صحيفته السيارة Chatan «جتان» الصادرة في لاهور الباكستان :

«اجتمع فريق من الشباب والشعراء في فندق (العرب) في لاهور

---

(١) من مقال للأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة الأزهر في عدد محرم سنة ١٣٨٣هـ تحت عنوان «أمة التوحيد تتوحد».

مرة ، وكان في الجماعة شباب شيوعيون في غاية من الذكاء وسلاطة اللسان ، وتجاذبوا مع الأستاذ (أختر الشيراني) أطراف الحديث ، وصاروا يتنافسون معه في موضوعات شتى ، وكان الأستاذ الشيراني قد شرب كأسين من الخمر ، وقد فقد رشده وملكته نشوة الخمر ، وأخذته رعشة في الجسم ، وكان يتكلم كلاماً متقطعاً غير متزن ، وكان معروفاً بالإعجاب الشديد بنفسه والتيه بها ، وكان لا يعترف بغيره من الشعراء ، ولست أذكر اليوم جيداً الموضوع الذي كان يدور البحث فيه ، ولكن أذكر أنه قال : قد ظهر في المسلمين ثلاثة نوابغ عبقريين ، أولهم أبو الفضل [١] والثاني أسد الله خان غالب [٢] والثالث أبو الكلام آزاد [٣] ، أما الشعراء المعاصرون فكان لا يعترف لأحد منهم بالمساواة أو المجاراة ، وقد سأله الشباب الشيوعيون عن الشاعر الكبير (فيض أحمد فيض) فأعرض عن الجواب ، وسألوه عن (شبير حسن جوش) الشاعر

---

(١) من وزراء الإمبراطور «أكبر» وصاحب «أكبرنامه» المأثرة العلمية التي تعتبر من الكتب الخالدة في التاريخ والدستور وتخطيط البلاد.

(٢) شاعر أردو ، يعتبر من أئمة الشعر الأردوي وصاحب مدرسة خاصة كان في القرن الثالث عشر الهجري.

(٣) العالم الأديب المعروف ، رئيس المؤتمر الهندي الوطني الأسبق ووزير المعارف في الجمهورية الهندية سابقاً.

المعروف ، فقال: ليس بشاعر إنما هو ناظم ، وهكذا كان موقفه من جميع الشعراء المعاصرين ، استخفاف أو إعراض أو تبسم أو تنكيت ، ولما رأى الشباب أنه لا يعترف بقيمة حركة الأدب التقدمي لجؤوا إلى موضوع آخر ، لعله يثيره أو يحرك منه ساكناً ، فقالوا: يا سيدي ، ماذا تقول عن النبي الفلاني؟ وكانت عيناه محمرتين ، وأخذت الخمرة فيه كل مأخذ ، وكان لا يملك لسانه ولكنه أفاق ، وقال: ما هذا الهراء؟ لا تتحدثوا إلا عن الأدب والإنشاء والشعر والشعراء ، فعطف عنان الكلام إلى أفلاطون ، وقال ما رأيك عن مكالماته؟ وسألوه عن أرسطو وسقراط ، وكان نشيطاً للكلام فقال: أمة قد خلت ، حدثونا عن شخصياتنا وحاضرنا ، إن أولئك الفلاسفة لو كانوا في عصرنا لتلمذوا علينا. مالنا ولأولئك حتى ندلي برأينا فيهم؟

•

وانتهز شاب «شاطر» من هؤلاء الشباب الشيوعيين فرصة نشاطه ومرحه فقال: وما رأيك عن سيدنا محمد؟ وكأنما نزلت صاعقة وهبت عاصفة ، فلم يكد الشاب يتم جملته حتى تناول الشاعر السكران كأس الزجاج وضربها على رأسه قائلاً: يا قليل الأدب! أنت توجه هذا السؤال الوقح إلى رجل مذنب معترف بشقائه ، ماذا تريد أن تسمع من فاسق؟ وكان جسمه يرتعد ، وانفجر باكياً وأجهش بالبكاء وأقبل على الشاب الوقح يقول له في عنف وغضب: كيف سوَّلت لك نفسك يا خبيث أن تذكر هذا الاسم النزيه المقدَّس ،

كيف تجاسرت على ذلك يا قليل الأدب ، يا قليل الحياء ، لقد كان لكلامك مجال واسع ، فلماذا دخلت في هذا الحمى المقدس ، تب إلى الله من هذا السؤال الوقح ، إنني أعرف خبث باطنكم جيداً ، وعرف الشر في وجهه وكأنه يريد أن يفتك بالشاب ويسطو به .

أما الشاب فقد سقط في يديه ، وغاب رشده ، ولم يكن يقدِّر أنه سيلقى هذه النتيجة الوخيمة ، وأنه يوقظ في الشاعر هذا الليث الثائر ، ويثير فيه هذه الشرارة الكامنة ، شرارة الإيمان والحنان ، وشرارة الحمية والغَيرة ، فكان لا يعرفه إلا شاعر الهوى والشباب ، وشاعر الغزل والغرام ، وحاول أن يشغله عن هذا الحديث المثير ، وأن يهدىء فيه هذه الثائرة ، ولكنه لم ينجح ولم تهدأ ثائرة (أختر) فأمر بإخراجه من المجلس ، ثم قام بنفسه وبات طول الليل باكياً يقول: لقد بلغ هؤلاء الشباب الملحدون هذا الحد من الوقاحة والجراءة ، إنهم يريدون أن ينتزعوا منا آخر ما نعتز به ونعيش عليه من حب وولاء ، وإخلاص ووفاء ، إنني رجل مذنب ، لا شك أعترف بذنبي ، ولكن هؤلاء يحاولون أن نخلع ربقة الإسلام ، ونخرج من حظيرة الإيمان ، لا والله لا نرضى بذلك .

ولكن ـ واأسفاه وواويلاه ـ ما أبعد المسافة بين هذا الوفاء العجمي وبين هذه الحمية الهندية ، وبين هذه الغيرة الإيمانية الثائرة المضطرمة التي يمثلها شاعر لم يكن قط من أبناء العرب ، ولم يتكلم مرة بلغة العرب ، لقد نشأ بعيداً عن كل ذلك ، بعيداً عن

البيئة الدينية والعلمية والأزهر الشريف ، وعاش في مجالس الشرب ونوادي اللهو ، وأوساط الشعر والأدب ، وعرف بالاستهتار وخلع العذار ، والشعر الخليع كشعر عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس ، وبشار بن برد. ما أبعد المسافة بينه وبين أديب كبير ، رضع بلبان اللغة العربية وآدابها الإسلامية ، واشتهر بمقالاته في السيرة النبوية والموضوعات الإسلامية ، يرأس تحرير مجلة هي لسان حال الأزهر الشريف ، مثابة العلم والعلماء ومعقل الدين الحنيف. كيف يقرن الاسم الذي هو من أكرم الأسماء وأعزها عند المسلمين ، باسم حاكم مصر الحالي ، ويقارن بينهما ، ثم تبلغ به الوقاحة إلى أن يعلن رجحان ناصر في هذا الميزان ، وأن الوحدة التي يتزعمها وحدة باقية نامية ، أما الوحدة التي دعا إليها محمد ﷺ ، فمعرضة للضعف والتحول ، يا ليته لم تلده أمه ، ويا ليتنا لم نعش لنسمع ذلك.

ثم ياليتنا سمعنا أن جمال عبد الناصر اضطرب لهذا المقال المخذول اضطراباً شديداً ، وطار نومه وتكدر عيشه ، وأن قصر الحكومة قد تزلزل ، وصعق المسلمون في مصر ، وأجهش الناس بالبكاء ، وقامت مصر كلها قومة رجل واحد ، وثار ضمير الشعب المصري المؤمن الذي عرف بغيرته وحماسته للإسلام وحبه العميق المتفاني لمحمد عليه السلام ، فكانت ثورة عارمة تكون نكالاً لكل من يقع في حمى النبوة ، ولكن - يا خيبة الأمل - لم يقع شيء من

ذلك ، وقد رأينا مجلة مصرية تصدر من القاهرة تعلق على هذا الحادث بعد شهرين من صدور مقال الزيات وتقول :

«والزيات وأمثاله بهذا النفاق المتبجح الأحمق يؤذون الثورة ، ويمكنون منها خصومها والمتربصين بها» .

ولقد كان لعلماء الأزهر على أثر نشر هذا الهراء اجتماعات وتجمعات وقرارات وبرقيات ، ولكن لبعضهم مواقف إيجابية تذكر وتشكر مما جعل شيخ الأزهر يصدر بياناً ويصدر الزيات بياناً .

ولم نطلع على البيانين ولكن منشىء المجلة يعلق عليهما بقوله : «لم يغنيا عنهما من الله شيئاً» .

ويتناول صاحب المجلة مقال الزيات بالتحليل والتجزئة ويقول: «إن الزيات ذكر الوحدة الإسلامية باسم الوحدة المحمدية شأن المستشرقين من جهة ، ويقارن بين أسماء محمد وصلاح وناصر من جهة أخرى ، وهذا سوء أدب مع الله لا يغتفر» .

ثم يتناول هذا المقال بالنقد ويقول :

«نسي الزيات أن السيد الرئيس أشرف من أن يدعي النبوة أو يتورك عليها ، أو أن يرضىٰ بتفضيله على رسول الله ﷺ ، وأنه أسمىٰ من أن يقول أنه جاء بما لم يجىء به سيدنا محمد ﷺ» .

وهنا يملكنا العجب والأسف ، كيف تحرص هذه المجلة الإسلامية على التأدب مع ناصر في هذه المناسبة التي لا تدع رجلاً

يفكـر فـي هـذه الألقـاب التـي يكـرم بهـا السيـد المنشـىء رئيـس جمهورية ، فلا ينسىٰ أن يذكره «بالسيد الرئيس» مع أن جميع الرئاسات الزائفة العارضة تتبخر أمام سيادة سيد البشر وسيد العرب ، والعجم ، الذي يسعىٰ إليه سلاطين العالم وسادة الأمم على رؤوسهم ، وقد تركوا وراءهم جميع شارات الشرف ومظاهر العظمة والفخار ، ويتقدمون إلى المقام النبوي الكريم مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، كيف استطاع هذا (الكاتب المسلم) وهو يدافع عن هذه الحرية المقدسة أن يذكر الرجل الذي قُورن به مع سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم «بالسيد الرئيس» ويهيل عليه هذه التحيات وهذه الألقاب ويسبح بحمده ، لقد كان المقام يقتضي أن ينسىٰ الكاتب كل شيء غير ما يستحقه هذا المقام الكريم مقام النبوة الخالدة ، ومقام السيادة العالمية من الإجلال والتكريم والغضب لحرمته ، وينسىٰ ما يذكره العبيد المتزلفون والصحافة الخانعة الذليلة من الألقاب الرسمية الفارغة الممجوجة ، إنها قلة ذوق نعاتب عليها الكاتب الفاضل و العالم الديني الذي يرأس تحرير هذه المجلة ، إنه دفاع ضعيف نربأ بمقام النبوة عن مثله ، ونترقب من مصر الإسلامية موقفاً أقوىٰ وأشرف منه. لقد كنا ننتظر لهذا الدفاع لغة أقوىٰ حماسة وأروع غيرة ، لقد كنا ننتظر أن يقول قائل في مصر: يكفي لشرف ناصر أن يُقر بسيادة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفاه فخراً أن يجد

مكاناً في آخر صف من صفوف موالي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعبيده الأرقاء ، ويكفي لسعادة ناصر أن يكون له حظ من سعادات صلاح الدين الأيوبي .

يا حسرتا! إن مصر التي لا يقل عدد المسلمين فيها عن ٩٠ في المئة ، ودينها الرسمي لا يزال الإسلام ، ولم تكن وطنيتها وحكومتها إلا منحة من منح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكثيرة ، استطاع فيها منافق أن يرجح كفة حاكم مصر على كفة سيد البشر ، وهو في وسط علماء الأزهر الشريف ، يتمتع بثقتهم ويأكل من رفدهم ، ولا يستطيع رجل في طول هذه البلاد وعرضها ، أن يرفع صوته بقوله: أين الثرىٰ من الثريا ، وأين الضريح من الضراح ، وأين فقاقيع الماء من نبوة خالدة لا تغرب شمسها ولا يأفل نجمها! أو ليس في مصر من يغضب لهذا الشرف ويقوم ثائراً ، فيقول لهذا الوقح الذي يقارن بين رئاسة لا يعرف مصيرها إنسان ، وبين هذه الرئاسة التي انتظمت الشرق والغرب وانتظمت الماضي والحال والمستقبل ، ويقارن بين الوحدة التي وحدت العرب والعجم ، ووحدت بين الأمم والشعوب المتحاربة من قرون فكانت أقوىٰ أخوة من الإخوة الأشقاء : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[1] . وبين الوحدة

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

التي لم تستطع أن توحد بين بلدين عربيين قريبين ، وبين شعبين عربيين شقيقين ، ويريد أن يصف تلك الوحدة النبوية الخالدة العصماء بالوهن والزوال ، ويريد أن يوهن العروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها ، لتحل محلها وحدة مصطنعة ولدت ناقصة مخدجة ، وعاشت سقيمة مسلولة ، تعاني الاحتضار ، وتخاف الانهيار في كل ساعة من ساعات الليل والنهار .

كناطحِ صخرة يوماً ليوهنها
فلم يَضِرها وأوهىٰ قرنَه الوعلُ

* * *

شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم

(١)

جزىٰ الله صديقي زيداً أنه يتفنن في «ضيافة» الأذواق ، ويتلطف في إثارة العواطف الخامدة ، والقرائح الجامدة ، فيؤلف نوادي أدبية يتساجل فيها الشعراء والأدباء وينشدون من أبياتهم ، أو يتمثلون بأحسن ما قاله الشعراء قديماً من الشعر الوجداني ، فترق النفوس ، وتلين القلوب ، وتفيض العيون ، وينقشع السحاب المادي الكثيف ، وينتقل الناس من عالم تسيطر عليه الآلام والهموم وتكاليف الحياة وأعباؤها ، فكل شيء فيه ثقيل يرسف في القيود ، ويتعثر في السلاسل ، كأنما يصعد إلى السماء ، إلى عالم تسيطر عليه العواطف والأشواق ، وتهب فيه النفحات القدسية فيشعرون بخفة الروح ، وسرور القلب ، ورقة الشعور ، وصفاء النفس ، ويشعرون بلذة الحياة وخفتها ، فيصبح ما كان جحيماً نعيماً ، وما كان ثقيلاً خفيفاً .

وقد خصص ندوة أمس بما قاله شعراء العجم في مدح النبي ﷺ والحنين إلى مدينته ، وما تغنوا به ، وفاضت به قريحتهم ، وشاء

شوقهم ، وحبهم وإيمانهم ، وقد تحقق عند المطلعين على الأدب الإسلامي العالمي ، والذين درسوا آداب اللغات التي تكلمت بها الشعوب الإسلامية في بلادها ، وتذوقوا شعرها ، أن اللغة الفارسية هي أغنىٰ ثروة ، وأسعد حظاً في المدائح النبوية من غيرها ، وتليها «أردو» التي هي سليلة الفارسية ، وأن ما قيل في إيران والهند في هذا الموضوع ، يمتاز عن غيره قوة وتأثيراً ، ورقة وعذوبة ، قد تجلت فيه العاطفة أقوىٰ وأروع منها في غيره ، وقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلة ، وجاؤوا بتعبيرات لم يسبقوا إليها ، ولا يزال السر في ذلك موضوع تفكير الباحثين ، وعلماء الأدب.

وقد علل ذلك بعضهم بالمزاج الإيراني والهندي ، وأن طبيعة الفرس والهنود طبيعة الحب والغرام ، وأن لغتهم لغة الغزل والهيام ، فلما انصرف ذلك كله إلى شخصية خصَّها الله بأعظم معاني الحسن والإحسان ، وأكبر مظاهر الجمال والكمال جاء بالعجب العجاب ، وصادفت قوة التعبير وبراعة التصوير ، وعاطفة الحب والتقدير ، ولوعة القلب والضمير ، ممدوحاً وحبيباً ألقىٰ الله عليه محبة منه ، وكساه أجمل لباس من الظاهر والباطن ، جاءت بكل معجب مطرب.

وعلل ذلك بعضهم بالبعد والهجر ، فلهما تأثير غريب في تفجير منابع القلب والحب ، وتوليد المعاني الغريبة وإشعال المواهب الدفينة ، وقد كان أكثر هؤلاء الشعراء يعيشون في بلاد بعيدة عن

الجزيرة العربية ، والمدينة النبوية ، وفي عهد يسود فيه الاضطراب والفوضى، والقلق، وكانت قوافل الحجاج تتعرض في غالب الأحيان للنهب والغارة ، فاستعاضوا عن الرحلة الطويلة المملوءة بالأخطار ، بالشعر والتعبير فيه عن حنينهم وأشواقهم ، ولم يزل الشعر بريد القلب والشوق ، وهو الحمام الزاجل الذي لا يزاحمه شيء ولا يعوقه شيء.

وعلله بعضهم بالتصوف الذي عاش وازدهر في إيران والهند ، وهو مهما انتقده المنتقدون ـ بحق وبغير حق ـ معروف بإثارة عاطفة الحب ، وتغذيتها وتنميتها ، ويصح أن يقال: إن أساسه الحب والعاطفة ، ومن لم يرزق حظاً منهما لم يفلح فيه إلا نادراً ، فقد كان هذا التصوف الذي رافق الشعر الإيراني والأدب الإيراني في أكثر مراحل حياته ، وساهم في تكوينهما ، ثم في توسيعهما وتقويتمها ، مصدر هذا الشعر الغزلي الرقيق ، والأدب الوجداني ، العميق ، فإذا امتلأت الكأس طفحت ، وإذا طفحت فاضت ، ولا بد أن يعقب الري السكر ، ولا بد أن يعقب السكر التغني ، وقد عبر الشاعر العربي القديم عن هذه الحقيقة في بلاغة وجمال ، وأنشد بلسان الحال ، فقال:

سقوني وقالوا: لا تغنِّ ولو سقَوا
جبال سليمىٰ ما سُقيت لغنَّت

وعلى كل فقد زخر الشعر الفارسي سواء ما قيل منه في إيران، أو

في الهند ـ التي تلمذت عليه واقتبست منه، حتىٰ كانت مدرسة مستقلة بجوار المدرسة الإيرانية الأصيلة ـ ببدائع المديح النبوي، وغرره.

وكان الصديق الفاضل موفقاً في اختيار هذا الموضوع وفي هذا الصنف من الشعر ، وقد ضم المجلس أصنافاً من الأدباء أكثرهم يتذوق الشعر الفارسي ، ولا يحتاج إلى ترجمة ، وضم طائفة من أدباء العرب الذين لا يفهمون اللغة الفارسية ، ولكنهم يتلذَّذون بموسيقا الشعر الفارسي ، وجمال النغمة ، وحسن الإنشاد.

وكلفني المضيف بترجمة بعض الأبيات ، وكنت أعرف أن مهمة الترجمة ، وترجمة الشعر بصفة خاصة ، وترجمة الشعر الفارسي أو الأردي بصفة أخص ، من أصعب الأعمال الأدبية وأدقها ، فلكل لغة أجواء تعيش فيها ، وتعبر فيها عن نفسها ، ولا يمكن نقل الأجواء ، وما يكتنف هذه اللغة من جو ، ومحيط ، وإقليم ، وطبيعة ، ونفسية أبنائها ، وتاريخ أدبها.

والشعر أرق وأدق من الزجاج الذي يسرع إليه الكسر ، ويبطىء عنه الجبر ، وما كان سر رقته وتأثيره في لفظه وتعبيره ، وفي أسلوبه وأمثاله ، ومناهج كلام أهله ، كانت ترجمته أصعب أو شبه المستحيل ، فتكلفت بنقل ما يأتي في هذه الأبيات من المعاني الجديدة والأفكار اللطيفة ، وأن يسمح لي بتخير بعض الأبيات التي تنسجم مع الذوق العربي ، وما يسهل تناوله واستساغته فأذن لي في ذلك مشكوراً.

وكان صديقي قد لقَّن طائفة من الأدباء والشباب المثقف المختار من شعر شعراء إيران والهند ، وقد أحسنوا حفظه وإنشاده ، ومثلوا أصحابه تمثيلاً رزيناً وقوراً يتجلَّىٰ فيه جمال الذوق ، وحسن الأدب ، ومعرفة البيئة التي عاش فيها هؤلاء الشعراء.

وكان أول من تقدم في هذا النادي هو الشيخ سعدي[١] صاحب الكتابين الخالدين اللذين يحتلان الصَّدارة في مكتبة الأدب العالمي ، وهما «كلستان وبوستان» حديقتان زاهرتان إلى هذا الوقت ، وكان الشعر الذي تعلق به القلب وقع عليه الاختيار شعراً سهلاً سائغاً ، كان مثالاً للسهل الممتنع ، وكأنه بحر صب في كأس ، أو مكتبة حشيت في سطر واحد ، يقول:

«إن اليتيم الذي نشأ أمياً وعاش أمياً ، ولم يقرأ القرآن في كتاب ، استطاع أن ينسخ مكتبات شعوب كثيرة ، فتفقد قيمتها وحيويتها ، وينشىء مكتبة جديدة كانت مصدر العلم والعرفان ، ومنهل كل رائد وظمآن».

وقد لخص في هذا الشعر تلك الثورة التي تفوق كل ثورة في القديم والجديد في عالم الأديان والأخلاق ، والعلوم والآداب والحضارات والمدنيات ، والقيم والمفاهيم. وكيف تحققت هذه المعجزة على يد أمي. لم يجلس في كتَّاب يوماً واحداً ، ولم يخط

(١) توفي سنة ٦٩١ هـ.

سواداً في بياض ، وكيف انبثق هذا العهد العلمي الجديد الذي لا ناسخ له ، وهذا الانفجار العلمي الهائل الذي خضعت له العصور والتاريخ ، من أميَّة مطبقة لا تشوبها دراسة ولا صناعة . إنها لغزة لا يحلها إلا الإيمان بالقدرة الإلٰهية ، وإنها غريبة لولا التواتر ، ولولا البداهة ، ولولا المشاهدة ، ولولا التاريخ المقطوع بصحته ، لما جاز تصديقها والإيمان بها .

وجاء الشيخ «فريد الدين العطار» صاحب منطق الطير وصاحب الدواوين السائرة ، والكتب المقبولة ، فأنشد أبياتاً تكاد تسيل رقة وعذوبة تجلت فيها الإنابة ، والتواضع والخشية والاعتراف بالتقصير ، وطلب فيها أن يسعد بشفاعة الرسول ، وألا يفتضح أمام العالمين ، والذي هزَّ قلبي ، هو قوله : «إن له حقاً لكونه سمي باسمه الشريف [١] ، والكرام يراعون الأولاد الذين يسمون باسمهم ويعرفون الحق» .

وجاء بعده شاعر الهند الأمير «خسرو» الذي سلم له شعراء إيران بالزعامة ، والإمامة ، وشهدوا له بالإجادة والإبداع في الشعر الفارسي ، كأبرز أبنائها وشعرائها ، وقد استرعىٰ انتباه المستمعين ، وملك إعجابهم واستحسانهم بحسن إنشاده ، ورخامة

---

(١) كان اسمه الذي سماه به أبوه «محمد» وقد لقب بفريد الدين ، واشتهر به ، توفي سنة ٦٢٧ هـ .

صوته ، وحلاوة جرسه [١] ، فكان مما قال :

«إن أنفاسه وأخلاقه قد نفخت الحياة في العرب الذين كانوا في الاحتضار، وأطفأت في وقت واحد شعلة أبي لهب[٢] الوهَّاجة التي كادت تأتي على الأخضر واليابس، إنه وصل خطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم[٣] وفي جولة من العالم المادي إلى العالم الروحي».

وجاء مولانا «عبد الرحمن الجامي» [٤] الذي يعتبر من أكبر شعراء المديح النبوي في التاريخ الإسلامي ، وقد تغنَّىٰ بشعره أهل القلوب والعلماء والأدباء في جميع البلاد التي تفهم اللغة الفارسية ، فأنشد أبياتاً من قصيدة له سارت بها الرُّكبان ، ورقت في اللفظ والتعبير ، فكان مما احتملته الترجمة قوله :

«يا من نسبه عربي ، ولقبه أمي ، لقد دان بولائك ، وخضع لسيادتك العرب والعجم سواء ، إن فصاحتك استأثرت العرب وإن ملاحتك ملكت قلوب العجم . ما ضرك ألاَّ تقرأ ولا تكتب ، فبفضل جهودك وبعثتك تعلم الأميون ، ونبغ الجاهلون ، بك

---

(١) يعد الأمير خسرو من أئمة فنون الموسيقا والألحان والإيقاع والنغم ومن مؤسسيها المجتهدين في الهند ، توفي سنة ٧٢٥ هـ.

(٢) يعني به زعيم الكفر والجاهلية وقد اتخذ شخصية أبي لهب كرمز لهذا الاتجاه.

(٣) يشير إلى الإسراء والمعراج.

(٤) توفي سنة ٨٩٨ هـ.

ابيضت صحيفة الأعمال ، وأشرق نورك في الظلمات ، فلا ضير ألَّا تخط سواداً على بياض ، أو تضم سواداً إلى سواد» .

وقد اهتز لهذا الشعر الرقيق البليغ السامعون ، وترنَّحت أعطافهم ، فاستزادوا الشيخ وأنشدوا الشعر العربي القديم ، فإن الشيخ من كبار فضلاء العربية ، ومن أئمة النحو والبلاغة .

وحــدَّثتنــا يــا سعــدُ عنهــم فــزدتنــا
شجونــاً فزدنــا من حديثـك يــا سعــدُ

وطلبوا منه أن يذكر فضل البعثة المحمدية ومنّها على العالم الإنساني ، فأنشأ قائلاً :

«لقد كانت الكعبة قبل بعثته مشحونة بأصنام من الحجارة ، وكان الحرم على سعته ضيقاً على من طلب الله وسعىٰ إليه ، إنه هو الذي اجتث هذه الأصنام وقطع دابرها ، واستأصل شأفتها ، وألقاها في مهاوي العدم. لقد رجع بفضله مقام إبراهيم إلى مكانته الأولىٰ ، وحقق غايته من بناء البيت الحرام» .

وقد استحسن ذلك الحاضرون ، وقد عرفوا أنه سافر على جناح الشوق إلى المدينة ، ووقف على قدم الحب في المسجد النبوي ، وأملاه حبه وشوقه الشعر الرقيق الرائق ، الذي طار في الآفاق ، وسار مسير المثل ، فاقترحوا عليه إنشاد قطعة من هذه القصيدة الشوقية ، فكأنه صادف رغبة فيه ، وأثار قيثارته ، فانطلقت منها نغمات ، فكان مما قال :

«لقد كان من سعادتي الكبرىٰ أن وصلت إليك ، فكان من شكري واعترافي بهذه النعمة، وكان من هيامي وغرامي، أن كنست بأجفاني ومُقلتي غبار طريقك. وسجدت لله شكراً في المسجد وجعلت روحي فراشة تتهافت على سراجك المنير ، هطلت سحابة عيني التي كان عهدها بعيداً بالمنام ، فنضحت بمائها عتبة بيتك ومدفنك ، لقد سعيت إلى منبرك فمسحت بوجهي قوائمه ، ووقفت في محرابك وسجدت لله ، وغسلت موضع قدمك بدم العين لا بدمعها ، لقد وقفت أمام كل سارية ، وسألت الله أن يرزقني مقام الصادقين الذين صلُّوا إلى هذه السواري في صدق وإخلاص».

وقد كان في المجلس بعض العلماء ، فرفعوا رؤوسهم عند بعض الأبيات ، ونظروا إلى الشاعر شزراً ، وإلى المترجم إشفاقاً وحذراً ، وكأنهم خافوا من تورط الشاعر في بعض فيما لا يجوز ، فقلنا إن الشاعر من الراسخين في العلم ومن أصحاب العقيدة الصحيحة ، ولكنها لغة الحب والشعر لا لغة الفقه والكلام ، وإنها مجازات واستعارات ، لا حقائق وقضايا.

وجاء بعده الشاعر الإيراني العظيم الذي كان من أئمة الغزل والقصيد، ومن أصحاب المذهب الجديد ، في الشعر الفارسي ، وهو الملقب بـ «عرفي»[1] وكنت أعرف أنه شاعر البلاط ، ومداح

(١) توفي سنة ٩٩٩هـ.

الملوك ، وأستاذ الشعراء في عهده ، وأن عهده قريب بمدح ممدوحه وسيده ، ولكنه تأدَّب لمقام الرسالة ، واعتذر عن مواقفه القريبة ، وقال: إنه لا يمكن أن يتغنىٰ رجل بمدح الملوك والسلاطين ، ومدح الرسول الأمين ، وسيد الأولين والآخرين في وقت واحد ، ومن إساءة الأدب وقلَّة الذوق ، أن يجمع الإنسان بين المدحين ، وأن يكون له نفسان متقاربان ، نفس في مدح سلاطين العجم ، ونفس في مدح سيد العرب والعجم.

وأعذره الحاضرون ولم يلحوا عليه بإنشاد مديح نبوي ، وأخروا ذلك إلى مناسبة أخرىٰ.

وجاء شاعر المديح النبوي المعروف بـ «القدسي» [١] وهو الذي لا تزال الأوساط العربية ، والصوفية ، تردد صداه ، وتنشد أبياته ، وتجدد بها الإيمان والحنان ، وشعره يمتاز بجمال النغمة ، وحلاوة الوزن ، واندراج الكلمات العربية في اللغة الفارسية ، لذلك هام به المغنون ، وقلده الشعراء والعلماء ، وكان من أكثر الأشعار التي تغنىٰ بها الناس ، وكان البيت الوحيد الذي استطعت أن أنقله بجماله وكماله ، وهو قوله: «عزوت نفسي مرة إلى كلب من كلاب حيك ، وخجلت وأطرقت رأسي حياء ، وقلت: هذه إساءة أدب وقلة ذوق».

---

(١) توفي سنة ١٠٥٦هـ.

وقد شعرت وأنا أنقل معناه ، أنه تورط في مبالغة وغلو ، فالإنسان الذي أكرمه الله بالإنسانية ، ثم أنعم عليه بالإيمان ، هو أشرف على كل حال من الكلب ، ولكني قلت: إن حبه وتواضعه قد ورطاه في هذا التعبير ، وللمحب عذر وللشاعر عذران.

وقام من بين شعراء الهند الكبار «غالب» [١] ليلحق بهذا الركب الميمون ، ويساهم في هذه الندوة الجديدة الإيمانية ، وأنشد مما طاب وراق من أشعاره السهلة ، وكان شعره من غير مبالغة في المدح واسترسال في الخيال وإغراق في الصناعات اللفظية.

«إن بنانه لم يمسك القلم لكنه سطر ما عجزت عنه أقلام التاريخ، ما وضع قدمه على الصحراء إلا وتحولت إلى جنة خضراء.

حلو كلامه يجعل الكافر مسلماً والزنديق مؤمناً ، أضاء الدنيا بنور الدين ، وأنقذ المؤمنين من عذاب يوم الدين.

حرر العباد من عبادة الأوثان وعمَّر العالم ببيت واحد ، بيت الإيمان ، أذاب قلوب الأعداء ونفوس القساة الغلاة ، ولا غرو ،

---

(١) هو أسد الله خان «غالب» الدهلوي أشهر شعراء «أردو» وأحظاهم بالقبول توفي ١٢٨٥هـ. وقد احتفلت الهند حكومة وشعباً بذكراه بمناسبة مرور مئة سنة على وفاته ، وكان من شعراء الفارسية المعدودين أيضاً.

فحصاة عتبته تذيب الحديد ، وتلين الشديد. عاكف في المحراب وقلبه معلَّق بخلق الله».

وجاء بعد هؤلاء الإيرانيين الأقحاح هندي من المعاصرين ، ضارع شعراء إيران في رشاقة اللغة وحلاوة اللفظ وجمال الأسلوب ، وهو الأستاذ مسعود علي المحوي [١] فأنشد قائلاً :

«رفعت الفطرة اللثام عن وجهها ، وتجلَّت بأجمل مظاهرها ، وفعلت فعل الربيع، فكسيت الأرض لباساً أحمر من الزهور والورود، ذلك كله لأجل بعثة محمد ﷺ ، إن نظره يعمل عمل الكيمياء فيحوِّل الخزف الأسود الذي لا قيمة له تبراً خالصاً ، وذهباً وهَّاجاً ، إنه سيد استطاع من غير جيش وكتائب ، أن يجعل من التائهين في البادية ملوكاً يحكمون العالم، وأساتذة يعلِّمون الأمم».

وجاء دور شعراء «أردو» وكان عددهم كثيراً ، فكان التغني بمدح الرسول ، والتحنن إلى بلده ومسجده ، موضوع شعراء الهند المفضل ، وحديثهم الأثير الحبيب ، وقد ردد صداهم الشعب الهندي المسلم في حماس وطرب ، وتسلَّىٰ به في أحزانه ، واستمد القوة الروحية والاعتزاز بحب الرسول النبي العربي ﷺ في مقاومة تيارات القومية الهندية المتطرفة ، أو الوطنية الملحدة ، حتى اتَّهمه

(١) ولد في قرية مجاورة للكهنؤ ، واكتسب اللغة الفارسية دراسة وذوقاً ، واشتغل في دار الترجمة في حيدر آباد ومات هناك.

الغلاة من دعاة القومية والوطنية بتفضيل الوطن الروحي على الوطن الجسدي ، ووكر الروح على وكر البدن.

هنالك اقترح الحاضرون على شاعر المديح النبوي «محسن كاكوروي» (١) الذي وقف حياته كلها على المدائح النبوية ، وقيل عنه: أنه لم يخط بيمينه غير المدح النبوي ولم يكن يحب أن يمدح غيره بالقلم الذي مدح به النبي ﷺ.

وتقدَّم الشاعر يصف ليلة الإسراء التي سعدت بأنوارها ونفحاتها البشرية ، وسعد بها حظ الأرض ، والدرجة التي فاز بها جبريل الأمين ، وهو يتمثَّل أمام النبي ليسير به في هذه الرحلة الخالدة عبر السموات السبع إلى ما يشاء الله.

«أيقظ النبي الكريم في أدب وتواضع ، بل أيقظ ـ في تعبير أصح وأفصح ـ حظه وجده وطالعه ، فإذا هو ﷺ يرىٰ في هذا الليل من العجب العجاب ما يأخذ بالألباب ، إن تتابع الأيام والأعوام ، وتقلب الليل والنهار ، لم يلدا ليلة مباركة كهذه الليلة ، إن هذا الإكرام الذي نالته الأرض في هذه الليلة لا تناله الآن إلى الأبد، ولو أصبحت تبراً وتحوَّلت دراً وجوهراً وإكسيراً، تتابعت فيها الرحمات كالندىٰ واتَّصلت الأرض بالسماء».

ثم تقدَّم زعيم الشعر الإسلامي الحديث الشيخ «ألطاف

---

(١) توفي سنة ١٣٢٣هـ.

حسين» الملقب في شعره «بحالي»[١] صاحب المنظومة أو الملحمة الإسلامية التي كان لها التأثير الكبير في هز مشاعر المسلمين بعد ثورة ١٨٥٧ م وإيقاظ النخوة الإسلامية فيهم ، وهي التي حظيت بإقبال وقبول لم يحظ بهما شعر آخر ، وامتاز شعره الذي أنشده في هذه المناسبة بحسن تصويره للواقع التاريخي وبعده عن المبالغة ، وأساليب شعراء العجم ، وكان مما جاء فيه :

«لقد خُصَّ من بين النبيين بلقب «رحمة للعالمين» هو الذي كان من دأبه إسعاف حاجات الفقراء ، وتحقيق رغباتهم المكنونة ، وكشف كربات الأعداء والبعداء ، ومشاركة البعيد والقريب في أحزانهم ونوائبهم ، يتألم بألمهم ، ويفرح بفرحهم ، ملجأ الفقراء ، ومأوىٰ الضعفاء ، وولي الأيتام ، ومربي العبيد والأرقاء ، يصفح عن الأخطاء ، ويحسن إلى من أساء ، ويصلح ما أفسده الناس ، يوحِّد القبائل المتناحرة ، ويُؤلف بين القلوب المتنافرة. نزل من غار حراء وفي يده إكسير من السماء ، حول التراب تبراً ، والحصىٰ دراً وجوهراً ، أقبل إلى الأمة العربية التي كان يُخيِّم عليها الجهل من قرون ، فأحدث فيها ثورة جذرية ، انقلبت بها أوضاعها وتغيَّر بها مجرىٰ التاريخ ، فقد ظلَّ هذا المعدن الكريم مطموراً مغموراً في التراب ، وتحت ركام الجاهلية لا يعلم

---

(١) توفي سنة ١٣٣٣ هـ.

أحد قيمته وغناءه. وقد أصبح ما طبعه الله عليه من أوصاف وفضائل ضائعاً عاطلاً ، فما وقع نظره على ذلك ، وما هبَّت عليه نفحة من نفحات بعثته حتى تلألأ نوراً وصفاء ، وأصبح ذهباً خالصاً ، إن الحجر الذي رفضه كل بنَّاء ، وزهد فيه كل معمار ، تناوله بيده الكريمة وجعله حجر الزاوية.

لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرَّق وغرَّب رعدها وبرقها ، فبينما رعدت على نهر «تاجه» في إسبانيا ، أمطرت على نهر «الكنج» في شبه القارَّة الهندية. لقد أحيا غيثها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعمَّ برها البر والبحر ، فما ترىٰ في العالم من رواء وبهاء ، ونور وسناء ، إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمَّدية».

وتبعه الشاعر الكبير «ظفر علي خان» [١] الذي أحدثت مدائحه النبوية دوياً في الأوساط الإسلامية والأدبية ، ولاحظ ضيق الوقت وتأدَّب مع الأساتذة الكبار ، فاقتصر على أبيات من قصيدته السائرة التي يفتتح بها كثير من الثانويات الإسلامية حفلاتها ودراستها ، وقد امتازت هذه الأبيات بجمال البحر والوزن ، وحسن النغمة واللحن ، وكان مما جاء في هذه الأبيات:

«إن السراج المنير الذي ظلَّ سنين طوالاً يتلألأ في الخلوات،

---

(١) توفي سنة ١٩٥٦ م.

وفي بيئة ضيقة محدودة ، لقد سبق علم الله أن تستنير به مجالس الملوك والعلماء وتقتبس نوره ، وتمشي في ضوئه قوافل العلم والحضارة، إنه سر الوجود، ولولا دينه ورسالته، ولولا نبوته وبعثته، لما أخذت الأرض زخرفها، ولما أكملت السموات زينتها».

«إن اللغزة التي عجز عن فكِّها النوابغ والأذكياء ، وأخفق في شرحها الفلاسفة والحكماء ، أفشىٰ سرها ، ورفع اللثام عن وجهها أمي كان يرتدي نَمِرة ، في لفظ وجيز ، وفي إشارات لطيفة. ليس الإيمان بضاعة رخيصة ، ولا سلعة معروضة في دكَّان الفلسفة ، إنه علق نفيس ، يبحث عنه الباحثون العقلاء فيجدونه في أجزاء القرآن ، إنَّ أبا بكرٍ وعمر وعثمان وعلياً أشعة شمسٍ واحدة ، إنها حلقة مفرغة لا يعلم طرفاها».

واتَّجهت الأبصار نحو الشاعر «إقبال أحمد سهيل» [١] الذي عرف بمدائحه المشهورة ، وقصائده السائرة ، واقترح عليه الحاضرون أن ينشد قصيدته المشهورة «موج كوثر» فقدَّم بعض أشعاره ومختاراته التي جاء فيها :

«غرَّة ناصية البشرية ، ونور جبين الإنسانية ، النبي الذي بدَّد ظلمات الكفر ، ونثر درر الإيمان ، ورفرف راية التَّوحيد ، حارس حديقة البشرية ، وروضة الإنسانية ، ألغىٰ عادة الرِّق ، وحطَّم

---

(١) توفي سنة ١٩٥٥ م.

سلاسل العبودية والذل ، أعاد إلى الروضة رواءها وأفاض عليها خيرها وبركتها ، كانت أسرة البشرية متفرقة ، فجمعها على مائدة واحدة ، وكانت لآلىء الحق والإيمان منتثرة ضائعة ، فربطها في سلك واحد .

قضىٰ على أوهام الجاهلية ، وخرافات الوثنية ، وأتاح للإنسان أن يتَّصل بالخالق الأحد الصَّمد ، صبَّ على من عاداه وآذاه رشحات حبه وعفوه ، وشمله برعاية عطفه وحنانه ، جمع بين سلطان الفقر والغنىٰ ، والجسد والروح ، والدين والدنيا ، ﷺ» .

وتقدَّم بعده صاحب الملحمة الإسلامية المشهورة «حفيظ الجالندهري» فأنشد أبياتاً من ملحمته المشهورة ، وقد جاء فيها بعض الحقائق التاريخية في لفظ رشيق ، وأسلوب أدبي ساحر ، منها قوله :

«إنه ردَّ إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها ، وإلى أفراد النوع الإنساني حقَّهم في الحياة ، ونكَّس الباطل ، وقلب عروش الملوك الجبابرة ، رفع رأس كل إنسان صابر ، وشرَّف قدر الأجير ، وأهان المثري المستأثر ، لقد كان الفقر فخره ، ولكن كانت سطوة كسرىٰ وقيصر تحت قدمه ، إنه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها ، وجبر القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها ، فصلوات الله عليك يا من كان كسره معجزة وجبره معجزة» .

وما أن وقف الشاعر ، حتىٰ رَنَت العيون إلى «ماهر القادري» وطلب الحاضرون من الشاعر أن ينشد في هذه المناسبة الكريمة قصيدته التي صوَّر فيها النعمة العظيمة التي فازت بها الإنسانية ، عن طريق هذا «النبي العظيم» والذي لا يمثل إلا الواقع ، ولا يُعبِّر إلا عن المشاهد الحية التي مرَّت على مسرح العالم ، فتقدم وأنشد ما طاب له من أبيات رائعة عن مبعث النبي ﷺ.

«هبَّت نفحات الرحمة ، وتحقَّقت أحلام البشرية ، وسقيت الأرض المجدبة القاحلة بوابل من جوده وكرمه وأخلاقه ، فأضاء رعاة الإبل شموع الحضارة ، وجعل الأشواك أزهاراً ، وذرَّات الصحراء كواكب ونجوماً».

«أقام الصلة بالرب ، وفك طلاسم الباطل ، وغير مجرىٰ التاريخ، وأنزل السفينة على بر الأمان والسلامة والإيمان ، رغم أمواج هائلة ، ورياح عاتية ، منح الإنسانية سيفاً ومصحفاً ، ودنيا وآخرة ، وجعل الموت شهادة ، وعلم آداب الحياة».

«نصر المظلومين وأغاث الملهوفين ، كان بلسماً للجروح وشفاء للصدور ، أضفىٰ على المرأة رداء الحياء ، ورقَّة الزجاج ، وأضاء جوهر السيرة والأخلاق ، فلم يقف سيل التوحيد ، ولم تنتكس راية الإسلام رغم غيظ الكفار والمشركين ، ومقت الشياطين ، فما أن تردَّد اسمه الحلو الحبيب على اللسان ،

حتى تجاوبت الشفاه والعيون معاً ، هذه بالدموع الفائضة وتلك بالبسمة العريضة ، وذلك شأن المحب الهائم إذا تذكر حبيبه الذي بلغ المنتهىٰ في الحسن والإحسان».

وجاءت نوبة «محمد إقبال» فارتفعت رؤوس الناس واشرأبَّت أعناقهم ، وغمرت المجلس موجة من الاهتزاز والتطلع ، فقام المضيف الكريم ، وقد شعر بأن المجلس قد طال ، فقال: حسبكم أيها السادة ما سمعتموه وتذوقتموه ، وإن لشاعرنا الكبير مجلساً خاصًّاً ، وحديثاً خاصًّاً ، لا يشاركه فيه أحد ، ووافق الجميع وقاموا وألسنتهم تلهج بالشكر ، ووجوههم تفيض بالبشر.



شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم

(٢)

وأنجز الصديق الكريم وعده، وعقد ندوة خاصَّة للحديث عن شعر «محمد إقبال» في المدح النبوي ومناجاته مع الرسول في عالم الخيال ، وقام أحد الأدباء المختصين بدراسة «إقبال» فتلا المقال الآتي :

«إن من العوامل الأساسية البارزة التي يرجع إليها الفضل في تكوين شخصية فيلسوفنا الكبير محمد إقبال وتماسكه أمام المادة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف هو الاتصال الروحي بالنبي ﷺ وحبه العميق له، ولا شك أن الحب هو خير حاجز للقلب، وخير حارس له ، إذا احتل قلباً وشغله ، منعه من أن يغزوه غيره ، أو أن يكون كريشة في فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول : «لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي، ويُعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بأثمد المدينة». ويقول: «مكثت في أتون التعليم الغربي وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود». ويقول :

«لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكني لا أخافهم فإني أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رُزق الحب الصادق عرف نفسه ، واحتفظ بكرامته ، واستغنىٰ عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرَّفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرىٰ في أثره الغبار فصار أعبق من العبير» .

وفي كتاب «أسرار خودي» ذكر الشاعر مقوِّمات حياة الأمة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتَّشبع بتعاليمه ، والتَّفاني في حبه. ولما ذكر النبي ﷺ اندفع يمدحه وأرسل النفس على سجيتها فقال أبياتاً لا تزال تُعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول :

«إن قلب المسلم عامر بحب المصطفىٰ ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إن هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرىٰ ، كان يرقد على الحصير ، إن هذا السيد الذي نام عبيده على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم. لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وجدت أمة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً .

لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ـ بأبي هو وأمي ـ لم تلد مثله أم ولم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يُساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوان واحد. جاءته بنت حاتم أسيرة مقيدة ، سافرة الوجه، خجلة مطرقة رأسها فاستحيا النبي ﷺ، وألقىٰ عليها رداءه.

نحن أعرىٰ من السيدة الطَّائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كله رحمة ، هذا بأعدائه ، وذاك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال: لا تثريب عليكم اليوم. نحن المسلمين من الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة ، نحن غيض من فيض واحد. نحن أزهار كثيرة العدد ، متحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكىٰ لفراقه الجذع وحنَّت إليه سارية المسجد؟ إن تربة المدينة أحب إليَّ من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب».

ولم يزل حبه للنبي ﷺ يزيد ويقوىٰ مع الأيام ، حتىٰ كان في آخر عمره إذا جرىٰ ذكر النبي ﷺ في مجلسه أو ذكرت المدينة ـ على منوِّرها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحب العميق ، معاني شعرية عجيبة ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى: «أنت غني عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر وإن كان لا بدَّ من حسابي ، فأرجوك يا رب أن تحاسبني بنجوة من المصطفىٰ ﷺ ، فإني أستحي

أن أنتسب إليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي» .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

«إنَّ الفقير المتمرِّد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إلٰه إلاَّ الله ، محمد رسول الله . وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه» (١) .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبىٰ أن يتطفَّل على مائدة أجنبية ، أو أن يروي غلته من معين غريب ، يقول : «رفقاً يا رسول الله بفقير غيور أبي النفس رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب» .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال (الهند) وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية

---

(١) روائع إقبال ص ٢٥ ـ ٢٧ .

الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهوِّر إلى الفكرة الغربية ومثلها وقيمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعر من أبلغ الشعر الوجداني تحدَّث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادَّة ، وما كان يجده في نفسه من فتور بعد النشاط ، ومن ضعف في العمل ، يقول:

أشكو إليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلَّم هذه الأمة التي تسلَّط عليها خوف الموت ، إنك حطَّمت الأصنام القديمة كاللات ومناة ، وجدَّدت العالم القديم الذي سرىٰ فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمد من الشهادة التي لقَّنته إياها الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

إننا ـ وإن ولدنا في بلاد عريقة في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقرة ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهَّان والسَّدنة ، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نَطُف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء ، والفضل في ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على السفرة التي بسطتها للعالم وقد ظلَّ حديثك مصدر الشَّوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبية في الفقر ، عفيفة في الحاجة ، ولكن العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجولت في ربوع العالم الإسلامي ، وزرت بلاد العرب وديار العجم ، فرأيت من يقتدي بك ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهبٍ ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان ، إن الشباب الإسلامي قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم ، إنهم في شباب ناعمون ، رقاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنَّظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيل بعد جيل ، حتىٰ أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها .

إن نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النزعة الدينية حتىٰ أصبحوا خبر كان ، إنهم هاموا بالغرب وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدَّق عليهم الغرب بكسرة خبز أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمة حقيرة ، فأصبحت الصقور التي تحلِّق في السماء عصافير صغيرة لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إن أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مزجاة لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إن نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذه الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سر الموت ولذَّته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه «لا غالب إلاَّ الله» . لقد مات قلبه بين جوانحه فأصبح لا يفكر إلا في المنام والطعام ، إنه حكَّم الغرب في

نفسه ليتلقَّىٰ منه رغيفاً ، وقبل منَّة مئة إنسان من أجل بطن واحد ، إن محطِّم الأصنام وسليل إبراهيم قد أصبح «آزر» ينحت الأصنام، إنه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة.

إن هذا الجيل قد أصبح في حاجة إلى بعث جديد ، وإلى أن تقول له مرَّة ثانية: قُم بإذن الله. لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك أن يثلوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسم هذه الحضارة ويبطل سحرها.

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم! بالله اقبض العنان ، وقف بي لحظة ، أبث إليك بالأشجان والأحزان ، وقد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنني في صراع بين سلطان الشوق وسلطان الأدب. إن الشوق يقول لي: تشجع وتكلم فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، والأدب يقول: إياك والفضول ، فأفتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكن الشوق عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زهد فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت في أحضانك ، إن صوتي قد اختنق في حلقومي ، وأن اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وأن أنفاسي قد تجردت من لوعة القلب ولهيب الصدر ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر.

إن الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف استقر في الصدر كالعاني الأسير؟ إنه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من علل يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها إلا أن تنظر إليّ من طرف خفي ، إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب فأبكي بكاء الأطفال إذا جرعوا الدواء المر ،وأنا أخادع نفسي فأمزجه بالحلاوة حتى تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليَّ ذلك اليوم الذي فقدته ، إن العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم، كالأم الحنون والرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنني مع عباد الليل والظلام في صراع شديد ، فمد سراجي بمدد من الزيت من جديد ، إن وجودك كان للعالم ربيعاً وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضن عليّ بشعاع من أشعة شمسك المنيرة للعالم. إن قيمة الجسم بالروح ، وإن قيمة الروح هو إشراق من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي من غير الله ، فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إن مهمتي أصعب وأدق من مهمة

«فرهاد» [١] الذي كلف تفجير نهر من لبن في جبل صلد أصم [٢] ، فأنا في حاجة إلى آلات أحد ، وقوى أشد ، حتى أتم مهمتي ، وأحقق رغبتي ، إنني مؤمن لا أكفر بشخصيتي ومواهبي ، فضعني على المسن [٣] ، فإنني حديد من معدن كريم .

إنني وإن كنت قد ضيعت شبابي ، وأتلفت حياتي ولكني أملك شيئاً اسمه «القلب» إنني أغار عليه وأستره من العيون ، لأنه يحمل أثراً من حافر جوادك الأصيل ، إن العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا ، إنما يتسلى برضا سيده وعطفه ، يعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكردي [٤] لوعة العرب ، اسمح للهندي أن يمثُل بين

---

(١) هو بطل أسطورة شائعة في الأدب الفارسي ، خلاصتها: أنه عشق امرأة اسمها «شيرين» كان يحبها ملك اسمه «خسرو» فلما عرف ذلك الملك كلفه أن يفجر نهراً من لبن من الجبل، فحمله الهيام بعشيقته على ذلك العمل العقيم ، وأكب على ذلك وانصرف إليه حتى مات، ويضرب به المثل في الوفاء والتفاني.

(٢) يشير إلى أنه كلف نفسه إخضاع الفلسفة الغربية المادية للغايات الدينية والخلقية ، والخروج منها بفلسفة جديدة ، وفكرة جديدة ، تخدم مقاصد الدين الإسلامي.

(٣) المشحذ الذي يسن أو يشحذ عليه السكين أو آلات الحديد.

(٤) يشير إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي الكردي.

يديك ، ويتحدث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاؤه ما يعانيه من حزن وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطب في الصحراء مرّ به ركب ، فأشعل فيه النار وأعجل الركب السير ، فمضى وخلَّفه ، وبقي الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمر به ركب جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة؟![1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) مأخوذ من ديوانه «ماذا يجب أن تعمله شعوب الشرق».
(الفارسي).

المحتـوى

الموضوع	الصفحة

* * *